إشكاليّة انفتاح التّوصيف النّحْويّ عند أبي حيّان الأندلسيّ

أيمن عبد المجيد عثمان
مدرس مساعد بقسم اللغة العربية وآدابها
جامعة بني سويف

المستخلص :

يحاول هذا البحث إعادة قراءة نحو أبي حيّان الأندلسيّ، المتمثّل في تفسيره "البحر المحيط" ومصنّفاته الأخرى . وذلك من خلال الكشف عن الخيط النّاظم والتّصوّر الكامن وراء جزئيّاته . وقد تبيّن لنا جليًا أنّ تصوّره للنّحو يقوم على الفصل المنهجيّ بين النّحو المجرّد والنّحو التّفسيريّ . وهذا الفصل جعل التّركيب النّحويّ منغلقًا على نفسه في النّوع الأوّل، منفتحًا على غيره من عناصر البلاغة والتّداول في النّوع الثّاني ؛ ممّا شكّل انفتاحًا في التّوصيف النّحْويّ عنده . وعلى الرّغم من أنّ هذا الفصل مستهجنٌ عند بعض الباحثين، إلّا أنّنا نرى فيه دلالة على صحّة منهج صاحبه وسلامة رؤيته في التّعاطي مع النّصّ القرآنيّ من جهة، والتّعاطي مع الشّاهد والمثال من جهة أخرى. وقد كان صنيعنا في هذا البحث موقوفًا على استجلاء ملامح هذا التّصوّر النّظريّ الذي وضعه أبو حيّان، والعمل على تجميعه في بناء نسقيّ، يوضّح فكره النّحويّ ويفصح عن تماسكه الدّاخليّ، ويفتح في الآن نفسه المجال لإمكانيّة قراءة الفكر النّحويّ التّراثيّ قراءة أقرب إلى روح العصر، دون أنْ يكون في ذلك أيٌّ مساس بطبيعة هذا التّراث أو بخصائصه، بل على العكس من ذلك تبدو عناصره في صياغتنا المعاصرة أكثر ثراءً وأبلغ عمقًا وأوفر حظًّا في إمدادنا بكيفيّة فهم النّصّ .

الكلمات المفْتاحيّة : التّوصيف النّحْويّ، النّحو المجرّد، النّحو التّفسيريّ، أبو حيّان الأندلسيّ، اللّسانيّات، البلاغة، التّداوليّة .

Abstract :

This research is an attempt to reread the grammar of Abu Hayan Al Andalosy as referred to in his explanation of his book " Al Bahr Al Muheet " and his other writings . This will be achieved through showing the connection between its components . It becomes clear that his viewpoint towards the grammar is based on the separation of " traditional grammar " and "contextual grammar".

This division or separation makes the grammatical structure to be closed in the first type , while in the other type it is open to other elements of rhetoric and Pragmatics . This makes his description or explanation of grammar to be open. In spite of the fact that this separation is unacceptable from some researchers , it is an indication that Abu Hayan's description or methodology is correct in dealing with the quranic text in the first hand , and dealing with proof and example in the second . Therfore , this research is based on clarifying the features of this theoretical viewpoint as adopted by Abu Hayan . It attempts to gather it in an orderd structure , to show the grammarian's vision and to indicate the strength of its internal components . Simultaneously , it provides achance to read the grammatical thought of heritage in order to make it suitable to modern life . This will be done without affecting either the nature or the features of this heritage . Insteed , this reading of heritage will make its elements to be rich and help in our comprehension of the text.

المقدّمة :

إنّ النّاظر في تاريخ التّأليف في النّحو العربيّ، يجد نفسه أمام اتّجاهين عامّين يمثّلان نوعين من النّحو؛ أحدهما : النّحو الشّكليّ، والآخر : النّحو الشّكليّ الدّلاليّ . أمّا الأوّل فهو يبحث عن خاصيّة الشّكل ومعياريّته وتوافق أجزائه، ويتّخذ من الإعراب هدفًا للوقوف على الحركات والحروف على أنها علامة إعرابية، الّتي من خلالها يتحقّق ذلك التّلاحم بين أجزائه . وأمّا الاتّجاه الآخر فهو يتّخذ من الشّكل مكوّنًا إجرائيًا، يقوم عليه الحدث اللّغويّ ؛ من أجل تعقّب قصديّة المنشئ لفعل الخطاب. وإذا تحقّق الانتخاب لنمط تركيبيّ ما فلحاجة المتكلّم، وهي الدّلالة القصديّة[1].

ويبدو أنّ هذين الاتّجاهين قد فرضا نفسيهما على منظومة البحث اللّغويّ الحديث كذلك ؛ فقد رأى بعض اللّغويين وجوب التّمييز بين الدّلالة والمقولات النّحويّة، فيجب ـ في نظرهم ـ تعريف المقولات النّحويّة في ضوء الوظيفة اللّغويّة وليس في ضوء معانيها ؛ فالفعل ـ مثلًا ـ يشغل وظيفة المسند والاسم يشغل وظيفة المسند إليه ... وهكذا . على أنّ الجدل قد عاد حول المعنى والنّحو الشّكليّ من جديد في ضوء ظهور الدّلالة التّفسيريّة والتّوليديّة، عقب ظهور نظريّة النّحو التّوليديّ التّحويليّ . ورأى أصحاب الدّلالة التّفسيريّة أنّ النّحو هو الأساس والدّلالة عنصر تفسيريّ، في حين رأى أصحاب الدّلالة التّوليديّة أنّ الدّلالة هي التّركيب العميق للجملة، وأنّ النّحو ليس سوى وسيلة لتحويل التّركيب العميق إلى تركيب سطحيّ[2].

هذا يعني أنّ العَلاقة بين الشّكل والدّلالة قد ألقت بظلالها على الفكر اللّغويّ قديمًا وحديثًا . على أنّ الدّلالة على النّحو السّابق لم تتعدّ حدود

---

[1] انظر: مقبوليّة نحو الشّكل وأثر ممارسة الضّغوط في أداء الدّلالة، د/ جودة مبروك محمد، ص(٢٩٣، ٢٩٤) .

[2] انظر : الدلالة والنحو، د / صلاح الدين صالح حسنين، ص (١٠٩ ـــــ ١١٥) .

التّركيب اللّغويّ، بل ظلّت محافظة على المعنى القضويّ أو الحرفيّ بمعزل عن قصديّة المخاطِب وانخراط المتلقّي واستدعاء المقام . وهو ما جعل الحاجة ماسّة إلى توجّه لسانيّ جديد يجبر هذا النّقص ؛ فيجاوز الدّلالة الحرفيّة للخطاب إلى محاصرة بنيته والإحاطة بكلّ وقائعه، بوصفه رسالة لغويّة يوظّفها المخاطِب بغرض التّواصل مع الآخرين . هذا التّوجّه تمثّل في التّداوليّة (Pragmatics)[٣] أو التّداوليّة اللّسانيّة (Linguistic Pragmatics)، الّتي تعني ـــ في أوجز تعريف لها وأقربه إلى القبول ـــ : دراسة اللّغة في الاستعمال in use أو في التّواصل in interaction[١].

---

[٣] طُرحت ترجمات عدّة لمصطلح (Pragmatics)؛ منها: البراجماتية اللسانية، والتداولية اللسانية، والتداولية، والتداوليات، وعلم اللغة التداولي، وعلم المقاصد، وعلم التخاطب، والتخاطبية، والسياقية، والمقامية، والمقاماتية، والمقاميات ، والوظائفية، وعلم الذرائع، والذرائعية، والذرعية، والذريعيات، وعلم اللغة الذرعي، وعلم اللغة الذرائعي، ومذهب الذرائع = = والفائداتية، والفوائدية، والغائية، والنفعية، والانتفاعية، والعملية، والبراجماتية، والبركماتية، والبراغماتية، والبراجماتيك، وبراغماطيقا، والرباغماتكس، والبراغماتزم، وعلم اللغة البراجماتي، ودراسة استعمالية، ودراسة استعمال اللغة. انظر: النظرية البراجماتية اللسانية (التداولية)، د / محمود عكاشة، ص (١٣، ١٤)، ومقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، د / محمد يونس، ص (١٣)، وآفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، ص (٩)، والمعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات، ص (١١١)، والمصطلحات المفاتيح في اللسانيات، ماري نوال غاري بريور، ترجمة : عبد القادر فهيم الشيباني، ص (٨٢)، والتداولية من أوستن إلى غوفمان، فيليب بلانشيه، ترجمة : صابر الحباشة، ص (٤٨، ٢٠٩)، ومدخل إلى اللسانيات التداولية، الجيلالي دالاش، ترجمة : محمد يحياتين، ص (٢٥)، واللسانيات وآفاق الدرس اللغوي، د/ أحمد محمد قدور، ص (٣٤)، وتطور علم اللغة منذ ١٩٧٠م، جرهارد هلبش، ترجمة : د / سعيد حسن بحيري، ص (٢٥) .

(1) Crystal David : Adictionary of Linguistics and Phonetics , P. 379 .
ـــ Jaccob L.Mey : Pragmatics " An Introduction ", p. 6 .

وتأسيسًا على ذلك، فإنّ علم الدِّلالة يفارق علم التّداوليّة من وجوه ؛ أهمُّها ما يأتي[٢]:

(١) أنّ علم الدِّلالة يدرس المعنى، في حين أنّ علم التّداوليّة يدرس الاستعمال .

(٢) أنّ معاني الجمل هي موضوع علم الدِّلالة، في حين أنّ معاني القولات هي موضوع علم التّداوليّة .

(٣) أنّ المعاني اللُّغويّة التي هي معانٍ وضعيّة تفهم من مفردات اللُّغة وتراكيبها، تدخل في اهتمامات علم الدّلالة ؛ لأنّ استنباطها لا يحتاج إلى عناصر خارج البنى اللُّغويّة، في حين أنّ مقاصد المتكلّمين أو مراداتهم تدخل في اهتمامات علم التّداوليّة ؛ لأنّه لا يمكن التّوصّل إليها إلا بمعرفة السِّياقات الّتي قيل فيها الكلام، ومعرفة المخاطِب والمخاطَب، وإعمال القدرات الاستنتاجيّة الّتي يمتلكها المخاطَب عند التّعامل مع الكلام .

على أنّ التّمييز بين علمي الدِّلالة والتّداوليّة، قد ارتبط بالتّمييز بينهما وبين علم آخر هو علم النّحو . وقد بدأ هذا الارتباط من البدايات الأولى الّتي عرض فيها الفيلسوف الأمريكيّ شارلز موريسCharles Morris (١٩٣٨م) للتّقسيم الثّلاثيّ، الّذي ميّز من خلاله بين مجالات ثلاثة في الإحاطة بأيّة لغة :

(١) النّحو : دراسة علاقات الأدلّة فيما بينها .

(٢) الدِّلالة : دراسة علاقة الأدلّة بالواقع .

(٣) التّداوليّة : دراسة العلاقات القائمة بين الأدلّة ومستعمليها[٣].

---

[٢] انظر: مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، ص (١٤، ١٥)، والتداولية البعد الثالث في سيميوطيقا موريس، د/ عيد بلبع، ص (٤٠ ـــ ٤٢) .

والسُّؤال الّذي يطرح نفسه هنا : ما العلاقة بين ثلاثيّة الدِّلالة والتّداوليّة والنّحو وإشكاليّةِ انفتاح التّوصيف النّحويِّ عند أبي حيّان الأندلسيِّ ؟!

الإجابة ببساطة تكمن في أنّ رصد المسافة بين هذه العناصر الثّلاثة في مصنّفات أبي حيّان، هو الكفيل بتحديد مصدر إشكاليّة انفتاح التّوصيف النّحويِّ عنده .

وهذا السؤال يستدعي عدداً من الأسئلة ؛ منها : هل النّحو والدِّلالة قابلان لأنْ يُفصلا عن التّداوليّة في معالجة الظّاهرة اللّغويّة ؟ وإذا كانت الإجابة بالإثبات، فهل قصد أبو حيّان إلى ذلك الفصل ؟ وإذا كان قد قصد، فهل استطاع تحقيق هذا الفصل دائماً، أم أنّ تحقيقه كان موكولًا إلى طبيعة المدوّنة الّتي مارس من خلالها نظرته إلى طبيعة النّحو ؟

إنّ الإجابة عن مجموع هذه الأسئلة هي الّتي تشكّل مادّة هذا البحث . وقد اقتضت هذه المادة أنْ يقسّم البحثُ على عدد من المحاور : الأوّل : النّحو ومقصديّة الخطاب الافتتاحيِّ عند أبي حيّان، والثّاني: مفهوم النّحو في مصنّفات أبي حيّان النّظريّة، والثّالث: مفهوم النّحو في تفسير "البحر المحيط"، والرّابع والأخير : نحو أبي حيّان في ضوء قواعد التّفكير العلميِّ .

١ : النّحو ومقصديّة الخطاب الافتتاحيِّ عند أبي حيّان :

(١ـ١) تقديم المدوّنة :

إنّ الوقوف على الخلفيّة الإبستمولوجيّة الّتي يلجأ إليها المخاطِب في خطابه، تجعلنا نتوقّف عند مفهوم المرجعيّة، ونؤشّر إلى قيمتها في فَهْم الخطاب . وقد رأى جورج مونان أنّ اللّغة " في ذاتها هي مجموعة من

---

(٣) انظر : المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب، دومينيك مانغونو، ترجمة : محمد يحياتين، ص (١٠١) .

البنى والأشكال وجودها يرتبط بتجربة المخاطبين بالعالم "[1]. ولذ فإنّ أيّ عمل لغويّ ـــ أدبيّ أو غير أدبيّ ـ يحتاج إلى قراءة تفكيكيّة لمجموعة البنى والعناصر الّتي تشكّله وتوضّح مقاصده . و" القصديّة أو المقصديّة من قصد القصد، استقامةُ الطّريق، قصد يقصد قصداً فهو قاصدٌ، يقول الله جلّ وعلا : ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصۡدُ ٱلسَّبِيلِ﴾[النحل : ١٦/ ٩] ؛ أي على الله تبيين الطريق المستقيم والدّعاء إليه بالحجج والبراهين الواضحة، وفي الحديث " القصدَ القصدَ تبلّغوا " ؛ أي عليكم بالقصد من الأمور في القول والفعل "[2]. ومنه الاقتصادُ ؛ وهو " فيما له طرفان : إفراطٌ و تفريطٌ "[3].

وقد صرّح الدكتور محمد مفتاح بأنّ العملية القصديّة تفترض " طرفين إنسانيّين : مرسل ومتلقٍّ . بيد أنّ المقاصد أنواع : أوّليٌّ يتجلّى في المعتقدات والرّغبات الّتي تكون لدى المتكلّم، وثانويٌّ يكون فيما يعرفه المتلقّي من مقاصد المتكلّم، وثلاثيٌّ ينعكس في هدف المتكلّم الّذي يريد أنْ يجعل المتلقّي يعترف بأنّه يريد منه جوابًا ملائمًا . وتوضيح هذا أنّ الفعل الكلاميّ " اقرأ " يلبّي مقصدًا أوّليًا يتجلّى في رغبة سماع القراءة، والمأمور (المتلقّي) يعترف برغبة المرسِل في سماع القراءة (مقصد ثانويٌّ)، ويريد المرسِل(الآمِر) أنْ ينتج عنه تلبية (غالبًا) أو رفض (قليلًا) (مقصد ثلاثيٌّ) "[4].

(1) George Mounin et autres : Dictionnaire de Linguistiqe , p.2001.

[2] لسان العرب، لابن منظور، دار صادر، (٢٥٣/٣) .

[3] الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية)، لأبي البقاء الكفوي، تحقيق : د/عدنان درويش و محمد المصري، ص (١٥٨)، و التوقيف على مهمات التعاريف، للشيخ الإمام / عبد الرءوف بن المناوي، تحقيق : د/عبد الحميد صالح حمدان، ص (٢٧٢) .

[4] تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص)، د/ محمد مفتاح، ص (١٦٤) .

هذا يعني أنّ الكلام ينهض على القصد . ولذا خلص الدّكتور طه عبد الرحمن إلى أنّه لا كلام إلّا مع وجود القصد . وهو مبدأ صاغه كما يأتي: " الأصلُ في الكلامِ القصدُ " [٥].

على أنّ المرسِل الّذي يبني كلامَه على القصد قد يكون شخصًا واحدًا، وقد يتوزّع ـ كما يرى غوفمان ـ بين مؤسِّس ومؤلِّف ومنظِّم ؛ فالمؤسِّس هو من يعبِّر النّصّ عن موقفه، والمؤلِّف هو من يضع الكلمات مع بعضها

ويكون مسئولًا عن صياغتها، والمنظِّم هو من ينتج الأصوات أو يضع الحروف على الورق[١].

وبالنّظر إلى مدوّنة أبي حيّان الأندلسيّ، نجد أنّها مدوّنة متعدّدة ومتباينة في الوقت نفسه . بيد أنّها صادرة عن منتج واحد، هو المؤسِّس والمؤلِّف والمنظّم لها جميعًا، وإنْ كانت بعض أجزاء هذه المدوّنة قد لا تستجيب لهذا الطّرح، وهو أمر سأعود إليه في قابل . وهي مدوّنة تحمل بلا شك قصدَه إلى مخاطَب معيّن . وقد قدّم لهذه المدوّنة بخطاب افتتاحيّ، بيّن من خلاله قصدَه من التّأليف، والمخاطَب المقصود به، والخلفيّة الإبستمولوجيّة الكامنة وراءه .

وتتوزّع هذه المدوّنة على ما يأتي[٢]:

---

[٥] اللسان والميزان أو التكوثر العقلي ، د / طه عبد الرحمن، ص (١٠٣) .

[١] انظر: تحليل الخطاب (التحليل النصي في البحث الاجتماعي)، نورمان فاركلوف، ترجمة : د/ طلال وهبه، ص (٤١) .

[٢] عوّل البحث على أشهر مصنّفات أبي حيّان النحوية المطبوعة فقط . وهي مصنفات تتجلّى فيها مظاهر إشكالية انفتاح التوصيف النحوي عنده، إضافة إلى أن فيها دليلًا كاشفًا وبرهانًا ساطعًا على المصنفات غير المذكورة .

(١) التّذييل والتّكميل في شرح كتاب التّسهيل :

• مقصديّة الخطاب الافتتاحيّ : تذييل شرح كتاب تسهيل الفوائد لابن مالك ؛ بتثقيفه، واستخراج فصّه، وفتح مقفله، وتوضيح مشكله، وتكميل شرح الخمسين الّذين لم يشرحهما المصنّف (ابن مالك)[٣].

• المخاطَب المقصود : بعض الأدباء من حَماةَ المحروسة الّذين سألوا أباحيّان تكميل شرح كتاب تسهيل الفوائد لابن مالك[٤]. ولا شكّ أنّهم هم وغيرهم من طلّاب العلم مقصودون بهذا المصنّف .

• الخلفيّة المعرفيّة : الإعجاب بكتاب تسهيل الفوائد لابن مالك، بيد أنّ هذا الإعجاب كان مشوبًا ببعض النّواقص ؛ منها : أنّه مفرط الإيجاز، غريب الاصطلاح، زاخر بنوادر المسائل . وهو ما دفع صاحبه إلى شرحه وتفسيره وتوضيحه، بيد أنّه قد غيّر فيه أكثر ما شرحه وفسّره ووضّحه، كما أنّه لم يكمل ما به من نقص. وهو ما دفع أباحيّان إلى التّذييل عليه وتكميل ما فاته[٥].

(٢) ارتشاف الضّرب من لسان العرب :

• مقصديّة الخطاب الافتتاحيّ : تجريد أحكام كتابه التّذييل والتّكميل من الاستدلال والتّعليل، وتضمينه سلامة اللّفظ وبيان التّمثيل ؛ فالحكم إذا برز في صورة المثال، أغنى النّاظر عن التّطلّب والتّسآل[٦].

• المخاطَب المقصود : طلّاب العلم بصفة عامّة[٧].

---

[٣] انظر : التذييل والتكميل، تحقيق : د/ حسن هنداوي، (١/٧، ٩) .
[٤] انظر : المصدر السابق، (١/٨) .
[٥] انظر : المصدر السابق، (١/٦) .
[٦] انظر : ارتشاف الضرب، تحقيق : د/ رجب عثمان محمد، (١/٤) .
[٧] انظر : المصدر السابق، الصفحة نفسها .

• الخلفيّة المعرفيّة : انشغاله بكتاب سيبويه، وتشديده النّكير على النُّحاة السّابقين الّذين انتزعوا منه تآليف قليلة الأحكام، عادمة الإتقان والإحكام، يحلُّها النّقد، وينحلُّ منها العقد، وربّما أهملوا كثيراً من أبوابه وأهملوا مافيها من الصّواب . ومن ثمّ فإنّ تآليفهم تحتاج إلى تثقيف، وتصانيفهم مضطرّة إلى تصنيف . وقد قام أبوحيّان بالفعل بتثقيف هذه المصنّفات وتصنيفها من خلال كتابه "التّذييل والتّكميل"، بيد أنّ هذا الكتاب زاخر بالتّعليل والاستدلال، منقوص الفوائد والزّوائد ؛ لذا كانت الحاجة إلى كتاب آخر يجبر ما به من نقص، ويستدرك به ما أغفل من فوائده[1].

(٣) النُّكت الحسان في شرح غاية الإحسان :

• مقصديّة الخطاب الافتتاحيّ: توضيح ما أشكل في مقدِّمته " غاية الإحسان في علم اللِّسان"[2].

• المخاطب المقصود : لم يحدِّده أبو حيّان، وإنْ كان يستشفُّ من خطابه الافتتاحيّ أنّ المقصود به طلّاب العلم بصفة عامّة .

• الخلفيّة المعرفيّة : ألّف أبوحيّان مقدِّمة في المسائل النّحويّة، أسماها " غاية الإحسان في علم اللِّسان"، وقد استشعر أنّها تحتاج إلى إعادة نظر ؛ وذلك لما يختلجها من غموض واستغلاق، ولما ينقصها من زيادة حكم وذكر خلاف أو استدلال، فكان أنْ ضمّن ذلك كلّه كتابه المسمّى " النُّكت الحسان في شرح غاية الإحسان "[3].

---

[1] انظر : ارتشاف الضرب، تحقيق : د/ رجب عثمان محمد، (١/٣، ٤) .

[2] انظر : النكت الحسان، تحقيق : د/ عبد الحسين الفتلي، ص (٣١) .

[3] انظر : المصدر السابق، الصفحة نفسها .

(٤) تقريب المقرّب :

• مقصديّة الخطاب الافتتاحيِّ : اختصار كتاب المقرّب لابن عصفور، مع تنقيح عبارته، والتّصرّف في ترتيبه؛ لاشتراكٍ في حكم أو ملائمةِ ترصيف أو نظم[٤].

• المخاطب المقصود : بيّن مخاطبه المقصود من خلال بيان هدفه من التّأليف ؛ وهو إغناء المبتدئ وتذكير الشّادي[٥].

• الخلفيّة المعرفيّة : إعجابه بفكر أستاذه ابن عصفور في كتبه بصفة عامّة، وفي كتاب "المقرّب" بصفة خاصّة . وقد دفعه ذلك إلى تقريبه إلى شداة العلم ؛ من خلال تجريد أحكامه، وتسهيل حفظه، وإسقاط تعليله واستدلاله[٦].

(٥) المبدع في التّصريف :

• مقصدية الخطاب الافتتاحيِّ : تلخيص كتاب "الممتع في التصريف" لابن عصفور[٧].

• المخاطب المقصود : لم يحدّده أبو حيّان، وإنْ كان يستشفّ من خطابه الافتتاحيِّ أنّ المقصود به طلّاب العلم بصفة عامّة .

• الخلفيّة المعرفيّة : إعجابه بكتاب "الممتع في التصريف" لابن عصفور ؛ لما انطوى عليه من حسن ترتيب وتنظيم وتقسيم، مما دفعه إلى وضع

---

[٤] انظر : تقريب المقرب، تحقيق : د/ عفيف عبد الرحمن، ص (٣٩، ٤٠) .

[٥] انظر : المصدر السابق، ص (٣٩) .

[٦] انظر : المصدر السابق، الصفحة نفسها .

[٧] انظر : المبدع في التصريف، تحقيق : د/ عبد الحميد السيد طلب، ص (٤٦، ٤٧) .

كتاب يلخِّص ما جاء فيه ؛ ليسهل على طلّاب العلم تحصيله في أقرب زمان[١].

(٦) تفسير البحر المحيط :

• مقصديّة الخطاب الافتتاحيّ : وضْعُ كتاب في التّفسير يلخّص ماطال من الكتب السّابقة، ويفتح مستغلقها، ويحلّ مشكلها، ويجمع مبدَّدها، ويضيف إلى ذلك ما استخرجته قوّته المفكّرة من لطائف علم البيان، المطّلع على إعجاز القرآن، ومن علم الإعراب، المغرب في الوجوه أيّ إغراب . وهي أمور حصّلها بالوقوف على علم العربيّة، والنّظر في التّراكيب النّحويّة، والتّصرُّف في أساليب النّظم والنّثر، والتّقلُّب في أفانين الخطب والشّعر[٢]. ومن أجل إحكام بناء هذا التّفسير وتضمينه ما سبق، وضع منهجًا في تأليفه لا يحيد عنه [٣]، كما سجّل فيه عددًا من العلوم الّتي يحتاج إليها المفسِّر في التّعاطي مع النّصِّ القرآنيّ[٤].

• المخاطب المقصود : كلّ من رام الوقوف على تفسير كتاب الله ؛ من مبتدئ وشادٍ وعالم .

• الخلفيّة المعرفيّة : يمكن الوقوف على الخلفيّة المعرفيّة الكامنة وراء تأليف أبي حيّان لتفسيره، من خلال رصد موقفه ممن قصَروا التّفسير على النّقل عن الصّحابة والتّابعين دون إعطاء فسحة لإعمال العقل؛ فقد شنّع على هؤلاء ورماهم بقصور الفَهْم وقلّة الإدراك ؛ يقول : " وقد جرينا الكلام يومًا مع بعض من عاصرنا، فكان يزعم أنّ علم التّفسير مضطرٌّ إلى النّقل في فهم معاني تراكيبه، بالإسناد إلى مجاهد وطاوس

---

[١] انظر : المبدع في التصريف، ص (٤٦، ٤٧) .

[٢] انظر : تفسير البحر المحيط، تحقيق : الشيخ/ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، (١/ ١٠٠) .

[٣] انظر : المصدر السابق ، (١/ ١٠٣، ١٠٤) .

[٤] انظر : المصدر السابق، (١/ ١٠٥ ـــ ١٠٩) .

وعكرمة وأضرابهم، وأنّ فهم الآيات متوقّف على ذلك، والعجب له أنْ يرى أقوال هؤلاء كثيرة الاختلاف، متباينة الأوصاف، متعارضة ينقض بعضها بعضًا، ونظير ما ذكره هذا المعاصر أنّه لو تعلّم أحدنا مثلًا لغة التّرك إفرادًا وتركيبًا حتى صار يتكلّم بتلك اللّغة، ويتصرّف فيها نثرًا ونظمًا، ويعرض ما تكلّمه على كلامهم فيجده مطابقًا للغتهم، قد شارك فيها فصحاءهم، ثم جاءه كتاب بلسان التّرك، فيحجم عن تدبّره وعن فهم ما تضمّنه من المعاني، حتّى يسأل عن ذلك سنقرًا التّركيّ أو سنجرًا، ترى مثل هذا يعدٌ من العقلاء، وكان هذا المعاصر يزعم أنّ كلّ آية نقل فيها التّفسير خلف عن سلف بالسّند إلى أنْ وصل ذلك إلى الصّحابة، ومن كلامه أنّ الصّحابة سألوا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عن تفسيرها، هذا وهم الفصحاء الّذين نزل القرآن بلسانهم، وقد رُوي عن عليٍّ كرّم الله وجهه، وقد سُئل هل خصّكم رسولُ الله بشيء ؟ فقال : ما عندنا غير ما في هذه الصّحيفة، أو فهمًا يؤتاه الرّجل في كتابه، وقول هذا المعاصر يخالف قول عليٍّ رضي الله عنه، وعلى قول هذا المعاصر يكون ما استخرجه النّاس بعد التّابعين من علوم التّفسير ومعانيه ودقائقه، وإظهار ما احتوى عليه من علم الفصاحة والبيان والإعجاز لا يكون تفسيرًا، حتّى ينقل بالسّند إلى مجاهد ونحوه، وهذا كلام ساقط"[٥].

وإذا تأمّلنا كلام أبي حيّان في هذا النّصِّ، وفي غيره مما نقلناه عنه بتصرّف، فإنّنا يمكن أنْ نقف على أمرين بارزين :

أحدهما : أنّ مدوّنة أبي حيّان تمثّل خطابًا له مقصديّة تعبّر عن منتجٍ واحدٍ هو أبو حيّان نفسه . بيد أنّ هذه الإنتاجيّة يمكن توزيعها ـ حسب غوفمان ـــ على النّحو الآتي :

أ ـــ المنتج المؤسّس والمؤلّف والمنظّم : وهو ما يتجلّى في كتابيه " البحر المحيط " و " النّكت الحسان " ؛ وذلك لأنّ هذين الكتابين هما

[٥] انظر : المصدر السابق ، (١/ ١٠٤) .

خلاصة فكر أبي حيّان، وليسا شرحًا لفكر غيره، كما أنّه صاغهما بنفسه، ودوّنهما بيده .

ب ــ المنتج المؤلِّف والمنظِّم : وهو ما يتجلّى في كتب غيره الّتي شرحها أو اختصرها . وتنحصر في" التّذييل والتّكميل "، و " ارتشاف الضّرب "، و " تقريب المقرّب "، و " المبدع في التّصريف " .

على أنّ هذا التّوزيع يمكن إعادة النّظر فيه ؛ عبر إضافة عناصر إنتاجيّة أخرى مستلهمة من تصنيف الكتب التي شرحها أبو حيّان واختصرها، وفرّق بينها وبين إنتاجه الخاص ؛ يقول : " الشّارح لكلام غيره ليس كالشّارح لكلام نفسه، ذلك يُنظر إليه بعين الاستدراك والانتقاد، وهذا يشرح كلام نفسه، وله فيه حسن الاعتقاد "[1]. وعليه يمكن إضافة العناصر الآتية إلى ما سبق تفصيله :

أ ـ المنتج المذيِّل (المستدرِك) والمكمِّل : ويتجلّى في كتابيه " التّذييل والتّكميل "، و " تقريب المقرّب " .

ب ـ المنتج الملخِّص : ويتجلّى في كتابيه " ارتشاف الضّرب "، و " المبدع في التّصريف " .

<u>والأمر الآخر</u> : أنّ مقصديّة الخطاب الافتتاحيّ وخلفيّته المعرفيّة والمخاطب به، تختلف بين كتب أبي حيّان الشّارحة لغيره وكتبه الشّارحة لنفسه ؛ فالأولى تغلب عليها الصّبغة التّعليميّة، في حين أنّ الأخرى تغلب عليها الصّبغة العلميّة، وإنْ كان هذا لا يمنع من تحقّق العكس، وهو أمر يحتاج إلى مزيد بيان، سيكون موضعه المحور الأخير من البحث .

[1] التذييل والتكميل، (١/ ٩) .

(١ـ٢) وظيفة النّحو في المدوّنة :

ارتبط مصطلح الفهم قديماً وحديثًا بالبحث عن المعنى ؛ فقد جاء في "التّوقيف على مهمّات التّعريف " قوله : " الفهم : تصوُّر المعنى من لفظ المخاطب . وقال الرّاغب : هيئة للنّفس بها تتحقّق معاني ما يحسّ "[٢]. كما ذهب " جلُّ الدّارسين إلى أنّ الغاية من القراءة هي أوّلًا وقبل كلِّ شيء فهم النّصِّ، وأنّ " مهمّة فهم النّصِّ تتوجّه بالدّرجة الأولى إلى معناه "، فكان الفهم نشاطًا ذهنيًا صادراً من القارئ مقبلًا على النّصِّ باحثًا عن معناه أو معانيه، وهو ما يعني أنّ النّصّ ذو معنى وأنّ مُنشئه ملتزم، في غالب الأحيان، عند تأليفه، بقواعد النّظم المشتركة ومسئول أمام القارئ الّذي من أجله خلق النّصّ، على التّبليغ والإفهام ... والّذي عليه العديد من المصنّفات أنّها تكاد ترادف بين الفهم والتّفسير وتقابل حينئذٍ بين الفهم والتّأويل، معنى ذلك أنّ الفهم عند العديد من النُّقّاد ليس إلّا إدراك المستوى الأوّل اللّغويّ الظّاهر المتبادر إلى الذّهن من النّصِّ وأنّه على القارئ أنْ يتجاوز هذا المستوى الأوّل من الفهم، على أهمّيّته، إلى ضرب من الفهم يتخطّى فيه ظاهر النّصِّ إلى باطنه، ويصل فيه بين عالم النّصِّ وعالم القارئ المختلف باختلاف مذاهب القراءة النّفسانيّة أو الفلسفيّة أو الدّينيّة وغيرها. وهذا المستوى الثّاني من الفهم هو التّأويل"[١].

على أنّ مصطلح الفهم قد ارتبط في مصنّفات أبي حيّان بعلم النّحو ؛ وذلك بوصفه آليّةً للوصول إلى فهم النّصِّ القرآنيِّ . وهو ما نجده ظاهراً في "تفسير البحر المحيط" ، بل وفي جلِّ مؤلّفات أبي حيّان ؛ يدلُّ على ذلك قوله في "البحر المحيط" : " فالكتاب هو المرقاة إلى فهم الكتاب "[٢]. وقوله في "النُّكت الحسان": " أسأل الله أنْ يجعل ذلك مرقاة إلى

---

[٢] التوقيف على مهمات التعاريف، ص (٢٦٥) .

[١] قضايا اللغة في كتب التفسير، د/ الهادي الجطلاوي، ص (٢٦) .

[٢] البحر المحيط، (١/ ١٠٠، ١٠١) .

فهم كتابه ومنجاة من عذابه . وموجبًا لجزيل ثوابه بمنّه وكرمه "[٣]. وقوله في "تقريب المقرّب": " وإلى الله أضرع وأرغب في أنْ يجعله خالصًا لوجهه الكريم ومعينًا على فهم كتابه الحكيم بمنّه وكرمه "[٤]. وقوله في "التّذييل والتّكميل" : " وجعل من أشرف المعارف، ما تحلّى به جنان العارف، من علم النّحو الّذي هو المرقاة إلى فهم كتابه، والسّبيل المؤدّية إلى تعرّف خطابه "[٥].

ولعلّ هذا الارتباط الحميم بين النّحو و فهم النّصّ القرآنيّ، يزعزع ما استقرّ في أذهان الدّارسين الّذين رأوا أنّ نشأة النّحو العربيّ كانت مرتبطةً بمحاربة اللّحن ؛ يقول الدّكتور عبده الراجحي : " لا يكاد الحديث عن نشأة النّحو يخلو من الحديث عن الأسباب الّتي كانت وراء هذه النّشأة، وتكاد كلّها تتركّز في قضيّة " اللّحن " الّذي رآه القدماء خطرًا على العربيّة وعلى القرآن الكريم . وهو رأي له ما يسنده من روايات التّاريخ على ما فيها من تناقض واضطراب . غير أنّ " اللّحن " وحده لا يفسّر نشأة النّحو وبخاصّة على أوّل صورة وصل بها إلينا وأعني بها كتاب سيبويه . والأقرب عندي أنّ النّحو ـ شأن العلوم الإسلاميّة الأخرى ـــ نشأ لفهم القرآن .

والبونُ شاسعٌ بين محاربة " اللّحن " وإرادة " الفهم "، لأنّ اللّحن ما كان يفضي بهذا " النّحو " إلى ما أفضى إليه في هذه المرحلة الباكرة من حياته، بل لعلّه كان حقيقيًا أنْ يقتصر على وضع ضوابط الصّحّة والخطأ في كلام العرب . أمّا " الفهم " فإنّه يقصد إلى البحث عن كلّ ما يفيد في استنطاق النّصّ وفي معرفة ما يؤدّيه التّركيب القرآنيّ على وجه الخصوص باعتباره أعلى ما في العربيّة من بيان . ومن هنا كان هذا النّشاط النّحوي القديم على الوجه الّذي نعرفه من كثرة علمائه وتفرّع

---

[٣] النكت الحسان، ص (٣١) .

[٤] تقريب المقرب، ص (٤٠) .

[٥] التذييل والتكميل، (٥/١) .

مذهبه ووفرة مادّته . ومن هنا أيضًا كان تعظيم العرب لهذا العلم وأهله حتى ليسمون كتاب سيبويه " الكتاب " أو يصفونه بأنّه " قرآن النحو "[٦].

ويقول ـــ في موضعٍ آخرَ ـــ : " لم يكن هذا العمل [أي : وضع النحو] يهدف إلى حفظ النّصِّ من اللّحن فقط كما وقر في الأذهان، وإنّما كان يهدف إلى غاية أبعد في أصول الحياة الإسلاميّة. ذلك أنّ المسلمين عرفوا ـــ بداية ـ أنّ عليهم أنْ يقرأوا القرآن وأنْ " يفهموه " لأنّه هو الّذي ينظّم حياتهم، ومن ثمّ نستطيع تفسير نشأة الحركة العقليّة العربيّة كلّها بأنّها كانت نتيجة نزول القرآن الكريم، فهي كلّها من نحو وصرف وبلاغة وأصول وكلام تسعى إلى هدف واحد هو " فهم " النّصِّ القرآنيِّ .

ولا ينبغي أنّ يغيب عن بالنا أنّ أبا الأسود كان من أئمّة القراء، وأنّ ابن أبي إسحاق الحضرمي، وعيسى بن عمر كانا من القرّاء، وأنّ أبا عمرو بن العلاء هو إمام البصرة في القراءة وأحد القرّاء السّبعة كذلك .

النّحو إذن نشأ " لفهم " القرآن، وفرق كبير بين علم يسعى " لفهم " النّصِّ وعلم يسعى " لحفظه " من اللّحن، ولو كانت الغاية منه حفظ النّصِّ من اللّحن لما أنتج العرب هذه الثّروة الضّخمة في مجال الدّرس النّحويِّ، ومحاولة " الفهم " هذه هي الّتي حدّدت مسار المنهج لأنّها ربطت درس النّحو بكلِّ المحاولات الأخرى التي تسعى لفهم النّصِّ، ومن ثمّ فإنّ دراسة منهج النّحو عند العرب لا تكون صحيحة إلّا مع اتّصالها بدراسة العلوم العربيّة الأخرى وبخاصّة الفقه والكلام "[١].

النّحو إذن أداةٌ لفهم النّصِّ (الخطاب) ؛ وإذا تحقّق هذا الفهم تكون عمليّة التّواصل قد نجحت بين المتكلّم والمخاطَب ؛ يقول الدّكتور أحمد المتوكّل : " من المعلوم أنّ عمليّة التّواصل تقتضي ثلاثة عناصر أساسيّة

---

[٦] دروس في كتب النحو، د/ عبده الراجحي، ص (١٠، ١١) .

[١] النحو العربي والدرس الحديث (بحث في المنهج)، د/ عبده الراجحي، ص (١٠) . وانظر نحوه في : فصول في فقه العربية، د/ رمضان عبد التواب، ص (١٠٨) .

: متكلّمًا ومخاطبًا وخطابًا ينتجه المتكلِّم ويؤوِّله المخاطَب، كما توضّح ذلك التّرسيمة التّالية :

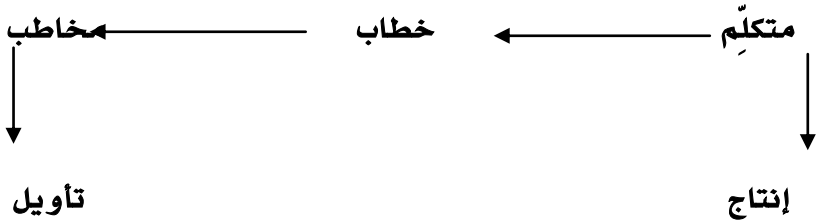

تكون عمليّة التّواصل " ناجحة " إذا خلا الخطاب من كلِّ ما يمكن أنْ يحول بين المخاطَب وبين تأويله وهو ما يسعى المتكلِّم في تحقيقه "[٢].

هذا يعني أنّ وظيفة النّحو هي فهم النّصِّ، وغاية الفهم الوصول إلى المعنى . النّحو إذن معادلٌ للسّليقة أو هو الموقّف والمعلّم البديل لها ؛ يقول أبو حيّان : " ثمّ تتابع النّاس في التّفسير وألّفوا فيه التّآليف، وكانت تآليف المتقدّمين أكثرها إنّما هي شرح لغة، ونقل سبب، ونسخ، وقصص، لأنّهم كانوا قريبي عهد بالعرب، وبلسان العرب، فلّما فسد اللّسان وكثرت العجم، ودخل في دين الإسلام أنواع الأمم المختلفو الألسنة، والنّاقصو الإدراك احتاج المتأخّرون إلى إظهار ما انطوى عليه كتاب الله تعالى من غرائب التّركيب، وانتزاع المعاني وإبراز النّكت البيانيّة، حتّى يدرك ذلك من لم تكن في طبعه، ويكتسبها من لم تكن نشأته عليها، ولا عنصره يحرّكه إليها، بخلاف الصّحابة والتّابعين من العرب، فإنّ ذلك كان مركوزًا في طباعهم يدركون تلك المعاني كلّها من غير موقّف

[٢] المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي (الأصول والامتداد)، د/ أحمد المتوكل، ص (٢٨) .

ولا معلِّم، لأنّ ذلك هو لسانهم وخطّتهم وبيانهم، على أنّهم كانوا يتفاوتون أيضًا في الفصاحة وفي البيان "[1].

بيد أنّ الوصول إلى المعنى المراد من الخطاب، ينقسم على نوعين : نوع يختصّ به التّركيب ؛ وهو معنى أوّليّ حرفيّ، ومعنى آخر يريده المتكلّم ويصبو إلى بيانه عبر هذا التّركيب . وهذان النّوعان يستدعيان نوعين من النّحو : نحوًا مجرّدًا قاصرًا على تبيين النّوع الأوّل من المعنى، ونحوًا تفسيريًا يتخطّى معنى التّركيب إلى المعنى المُحصّل من السّياق ؛ بغرض الوصول إلى المعنى الثّاني. وهذا الطّرح يتردّد صداه في مدوّنة أبي حيّان، على نحو ما سيظهر فيما يستقبل من محاور.

٢ : مفهوم النّحو في مصنّفات أبي حيّان النّظريّة بين المحدوديّة والشُّمول :

(١.٢) المسافة بين علوم اللُّغة وعلم اللُّغة :

ثمّة نوعان من العلوم يمكن التمييز بينهما عند مقاربة الظّاهرة اللُّغويّة[2]:

أ ـــ علم تنظيميّ قانونيّ : يهدف إلى حصر القواعد الّتي تنظِّم دائرة معيّنة من دوائر النّشاط الإنسانيّ، بحيث يكون الوقوف على هذه القواعد واستيعابها والتزامها والاحتكام إليها، واقيًا من الوقوع في الخطأ عند ممارسة النّشاط في تلك الدّائرة . كما تعمل هذه القواعد على اكتشاف هذا الخطأ عند من يقع فيه من النّاس . وهذه العلوم تتميّز بأنّها نفعيّة ؛ لأنّ كلًا منها يعدّ وسيلة وميزانًا في دائرة اختصاصه . من هنا يطلق عليها أحيانًا " العلوم المعياريّة " .

---

[1] البحر المحيط، (١/ ١٢٠) .

[2] انظر: اللسان والإنسان (مدخل إلى معرفة اللغة)، د/ حسن ظاظا، ص (١٣ ـــ ١٥) .

وتحت هذا النّوع يندرج علما النّحو والصّرف . والأوّل يتضمّن مجموعة القوانيين الّتي تنظِّم تركيب الكلام في لغة من اللُّغات، وتكفل تمييز الخطأ من الصّواب في استعمال اللغة، في حين أنّ الثّاني يمثّل دستوراً لأوزان الألفاظ وصيغها، ودلالات هذه الصّيغ، وما يعتريها عند تنويع الاشتقاق من عوارض صوتيّة في لغة معيّنة، كالإدغام والإبدال والإعلال والحذف والزّيادة وما إلى ذلك .

وهذان العلمان علمان قانونيّان لا يصلحان لكلِّ زمانٍ ومكانٍ ؛ لأنّهما يتّصلان بلغة معيّنة لأمّة من الأمم ترجع إلى أصل واحد، أو يشملهما تراث حضاريٌّ وفكريٌّ واحد .

ب ـ علم وصفيٌّ تفسيريٌّ : يقف فيه الإنسان أمام ظاهرة من الظّواهر الكونيّة، فيحاول ـــ بطريق التّأمّل الفكريّ، أو المقارنة والقياس، أو الاستقراء والاستقصاء، أو التّجربة العمليّة ـــ أنْ يتعمّق تلك الظّاهرة ؛ محدّداً أبعادها، معرّفًا بجوهرها، واصفًا أسبابها ونتائجها، مفسّراً لها في إطار الكون الكبير المحيط بها.

ويندرج تحت هذا النّوع علم اللُّغة وفقه اللُّغة . ويتعلّق علم اللُّغة بدراسة اللُّغة ـــ أي لغة ـــ بصفة عامّة ،

بوصفها ظاهرة فكريّة عضويّة خاصّة بالإنسان دون غيره من الكائنات الحيّة . ومن ثمّ، فإنّه يطرح عدداً من الأسئلة ؛ من قبيل : ما اللُّغة ؟ وكيف ظهرت ؟ وما علاقتها بالعمليات الفكريّة والأحوال النفسيّة ؟ وكيف تنمو وتتطوّر ؟ وكيف تشيخ وتموت ؟ ولماذا تتنوّع الألسنة واللُّغات ؟ في حين أنّ فقه اللُّغة يتعلّق بدراسة لغة معيّنة أو مجموعة من اللُّغات، فيطبّق عليها النّتائج الّتي كشفها علم اللُّغة، وتبحث بهذه الوسيلة في خصائص هذه اللُّغة المعيّنة، أو المجموعة اللُّغويّة، وتاريخها وتطوّرها وتفاعلها مع الفكر، ومع البشر، ومع غيرها من اللُّغات .

إنّ هذا التّفريق بين العلوم نجد أصداءه عند أبي حيّان الأندلسيّ ؛ فقد جاء في "النُّكت الحسان" قوله : " النحو علم بأحكام الكلم العربية إفراداً وتركيباً، علم : جنس يشمل سائر العلوم، وأحكام الكلم هو ما يعتور الكلمة ويتداول عليها وجوبًا وامتناعًا وجوازًا، وهو فصل يخرج سائر العلوم غير النحو كعلم مدلول الكلم، وهو علم اللغة، وكعلم البيان، والعربية فصل يخرج ما يصلح الكلم في غير اللسان العربي كاللاطن الذي وضع لإصلاح لسان العبرية وغيره "[1].

هذا يعني أنّ أبا حيّان استطاع أنْ يميّز بين النّحو ؛ بوصفه علمًا قانونيًا ضابطًا ومنظّمًا للظّاهرة اللّغويّة، وعلمي اللّغة والبيان ؛ بوصفهما علمين تفسيريّين لهذه الظّاهرة . على أنّه قد أقام عَلاقاتٍ من الاتّصال والانفصال بين النّحو وهذين العلمين . وقد ترتّب على هذا تعدُّد في التّوصيف النّحويّ الذي يعود إلى تنوّع هذه العلاقات . وهو ما أدّى إلى ظهور النّحو المجرّد، الذي نتناوله في هذا المحور، والنّحو التّفسيريّ، الذي سنرجئ الحديثَ عنه إلى المحور القابل .

(٢.٢) مفهوم النّحو المجرّد :

ما أقصده بـــ " النحو المجرّد " : النّحو الذي ينطوي على الضّوابط الّتي تميّز الصّواب من الخطأ في التّراكيب وبنية المفردات . وهو بذلك يَصْدُق على ما يسمّى بـــ " النّحو التّعليميّ "، الّذي تختصّ به المؤلّفات الموصوفة بالتّعليميّة . وهي الكتب الّتي تعرض للمادّة النّحويّة وتطبّقها على النّصوص، سواء أكان المقصود من التّأليف مبتدئًا أم متوسطًا أم متخصّصًا، وسواء أكانت هذه الكتب مختصرة للمبتدئين، أم كانت مفصّلة

[1] النكت الحسان، (٣١، ٣٢) .

للشّادين، أم مطوّلة للمتخصّصين، فالغرض منها مختصرة أو مطوّلة تعليمُ النّحو، وإن اختلفت المستويات التّعليميّة[٢].

إنّ هذا النّوع من النّحو يتكفّل بالكشف عن المعنى الثّابت أو الحرفيّ أو القضويّ للتّركيب، ولا يتعدّاه إلى المعنى السّياقيّ. وعلى ذلك فالنّحو المجرّد هو النّحو المجرّد من المعنى السّياقيّ، وهو المعنى الّذي يعيّن مقصود المتكلّم من التّركيب .

وهذا النّوع يستنتج من تعريف أبي حيّان للنّحو في كتبه سوى "البحر المحيط" ؛ فقد عرّفه في "النّكت الحسان" بقوله : " النّحو علم بأحكام الكلم العربية إفرادًا وتركيبًا "[٣]. وعرفه في "تقريب المقرّب" بقوله : " النحو علم مؤصّل بمقاييس كلام العرب المعرِّفةِ أحكامَ أجزاءِ ائتلف منها"[١]. وفي "التّذييل والتّكميل"، نجده يعيب على ابن مالك عدم التّقديم لكتابه بتعريفٍ للنّحو، ثم نجده يستدرك عليه بعدد من التّعريفات الآتية[٢]:

ـــ تعريف أبي عبد الله الإشبيليّ : " النّحو هو علم بالتّغييرات اللّاحقة للكلم ومدلولاتها " .

ـــ تعريف ابن هشام الخضراويّ : "النّحو علم بأقيسة تغير ذوات الكلم وأواخرها بالنّسبة إلى لغـــة لســـان العرب " .

ـــ تعريف أبي محمد اللّوْرَقي : "النّحو علم يبحث فيه عن أحوال الكلم العربيّة إفرادًا وتركيبًا فقط " .

---

[٢] انظر: الدرس النحوي في التراث العربي، د/ محمد إبراهيم عبادة، ص (١٥)، و التأليف النحوي بين التعليم والتفسير، د/ وضحة عبد الكريم جمعة الميعان، ص (٢١٣) .

[٣] النكت الحسان، ص (٣١، ٣٢) .

[١] تقريب المقرب، ص (٤١) .

[٢] انظر : التذييل والتكميل، (١ / ١٣، ١٤) .

ـــ تعريف ابن عُصفور الإشبيليّ : " النّحو علم مستخرج بالمقاييس المستنبطة من استقراء كلام العرب، الموصِّلة إلى معرفة أحكام أجزائه الّتي ائتلف منها " .

ـــ تعريف ابن الأثير الجزري : "النّحو معرفة أوضاع كلام العرب ذاتًا وحكمًا واصطلاح ألفاظٍ حدًا ورسمًا".

بيد أنّه لم يعلّق على هذه التّعريفات ؛ بما يفيد إقراره بما جاء فيها . وإنْ كان التّعريف الذي أثبته في "النُّكت الحسان"، يشي بأنّ غاية النّحو عنده إصلاح اللِّسان العربيّ وعصمته من الوقوع في اللّحن ؛ بدليل قوله في تفسير المقصود بالأحكام التّركيبيّة : " والتّركيبيّة هي المحتاج إليها لإصلاح اللِّسان ؛ لأنّ التّركيبيّة يدرك بها ما يرفع وينصب ويجرّ، ويجزم، وغير ذلك من التّراكيب، وذلك كافٍ في التّكلّم بلسان العرب "[٣].

على أنّ هذه الكفاية الممثّلة فيما يصلح اللِّسان، تمثّل الحدّ الأدنى من حاجة المتكلّم بلسان العربيّة ؛ يدلّ على ذلك هذا الفصلُ الذي أقامه بين علم النّحو(التّصريف والإعراب) وعلمي اللُّغة والبيان، على النّحو الّذي عرضنا له في العنصر السّابق . إنّ اقتصاره على الحدّ الأدنى يعكس وعيه بطبيعة النّحو الّذي يريد أنْ يوصله إلى متلقّيه، إنّه النّحو المجرّد .

وإذا كان هذا النّحو يروم إصلاحَ الشّكل، فإنّه لا يهمل المعنى الإخباريّ الوضعيّ الذي يشتمل عليه التّركيب. وهو ما يستدلّ عليه من تعريفه لمصطلحي النّحو والكلام في كتابه "تقريب المقرّب" ؛ يقول : " النّحو علم مؤصّل بمقاييس كلام العرب المعرِّفةِ أحكامَ أجزاءٍ ائتلف منها . والكلام لفظ مركّب مفيد بالوضع، وأجزاؤه : اسم، وفعل، وحرف، فالاسم

[٣] النكت الحسان، ص (٣٤) .

لفظ يفهم منه وحده معنى غير متعرِّض ببنية لزمان، والفعل كالاسم إلّا في عدم التّعرُّض، والحرف لفظ دالّ على معنى في غيره فقط "[٤].

إنّ تعريفه للكلام يؤكِّد التّجريد الذي يتّسم به هذا النّوع من النّحو، القاصر على وصف الحقيقة اللّغويّة دون الإحاطة بملابساتها الخارجيّة ؛ يقول الدّكتور حسن ظاظا ــ في تعريف الكلام ــ : " هو اللّفظ المفيد، كما يقول علماء النّحو . لكنّا نلاحظ على هذا التّعريف أنّه ينظر إلى الكلام من حيث هو حقيقة لغوية واقعة أمام السّامع، دون نظر إلى أنّ تلك الحقيقة اللّغويّة نفسها وليدة ملابسات خارجيّة، وعناصر جزئيّة شديدة التّعقّد، لابدّ للباحث في علم اللّغة أو فقه اللّغة من أنْ يعطيها حظّها من الأهمّيّة في التّعريف "[٥].

(٣.٢) مجال النّحو بين المحدوديّة والشّمول :

ذهب الدّكتور أحمد المتوكّل إلى أنّ ثمّة سؤالين أساسيّين ملزمين للمتصدّي لدراسة البنية التّركيبيّة في اللّغات الطّبيعيّة، هما : سؤال ماهية، وسؤال بناء :

أوّلًا : سؤال الماهية : ما الظّواهر الّتي يمكن أنْ تُدرج في مجال التّركيب ؟ هل الصّرف من التّركيب أم هل هو مستقلّ عنه قائمٌ بذاته ؟

ثانيًا : سؤال البناء : ما عَلاقة التّركيب، أيًّا كان مجاله، بمستويات التّمثيل الأخرى، خاصّة مستويي الدّلالة والتّداول ؟ هل التّركيب تابعٌ لهذين المستويين أم هل له إواليّاته الّتي تشتغل في معزل وفي غنىً عنهما؟[١]

---

[٤] تقريب المقرب، ص (٤١) .

[٥] اللسان والإنسان، ص (٢٧) .

[١] انظر : التركيبيات الوظيفية (قضايا ومقاربات)، د/ أحمد المتوكل، ص (١٣) .

وهذان السؤالان يدخلان ـ في رأيي ـ في صميم بحثنا عن طبيعة النّحو عند أبي حيّان . أمّا الأوّل فسنحاول الإجابة عليه هنا، وأمّا الثّاني فسنرجئ الإجابة عليه إلى المحور القابل .

بدايةً يمكن القول إنّ التّركيب يرد مقصوراً على رتبة المكوّنات في نظريّةٍ، ومتضمّنًا للصّرف في نظريّةٍ ثانية، ويرد متضمّنًا له شاملًا للاشتقاق في نظريّة ثالثة[٢]. كما يمكن القول إنّ علاقة الصّرف بالتّركيب تظلّ خالقة لأحد أهمّ إشكالات بناء النّحو، سواء أميزنا الصّرف عن التّركيب أم وصلناه به[٣].

وإذا نظرنا إلى مفهوم النّحو في مصنّفات أبي حيّان سوى "البحر المحيط"، فسنجد أنّه يشمل علمي الصّرف والإعراب معًا . وقد أطلق على الأوّل لفظَ الإفراد، في حين أطلق على الآخر لفظَ التّركيب . وقد وضّح الفرق بين الإفراد والتّركيب بقوله : " لمّا كان الكلم في الكلمة ينقسم إلى قسمين : نظر فيها حالة الإفراد كمعرفة التّصغير والتّكسير والتّثنية والجمع والإدغام والقلب والإبدال والزّيادة وغير ذلك، ونظر فيها حالة التّركيب كالفاعليّة والمفعوليّة والإضافة وغير ذلك . ندع ذلك إلى الإفراد والتّركيب، وذلك تتميمُ الحدّ لا أنّه من فصوله"[٤]. وبقوله ـ في موضعٍ آخرَ ـ : " والأحكام إفراديّة وتركيبيّة، وهي إعرابيّة وغيرها"[٥]. وبقوله ـ في موضع آخر ـ : " علم التّصريف يلطف إدراكه على ذوي الأفهام، ويشرف المتحلّى به على سائر الأنام، إذ هو أشرف شطري اللّسان العربيّ، وأجمل ذخيرة الفاضل النّحويّ . ولغموضه قلّ فيه التّصنيف والخلاف، ولم تتوارد عليه الأفهام فيكثر فيه الاختلاف . وليس كعلم الإعراب الّذي ازدحم على منهله الوارد، وترنقت بعد صفوها منه الموارد،

---

[٢] انظر : المرجع السابق، الصفحة نفسها .

[٣] انظر : المرجع السابق، ص (١٦) .

[٤] النكت الحسان، ص (٣١، ٣٢) .

[٥] تقريب المقرب، ص (٤١) .

فلا يتميّز فيه الفاضل إلا عند أفراد الرِّجال، ولا يظهر فيه السّابق إلّا عند ضيق المجال، وما أحد ممّا نظر في الإعراب أدنى نظر إلّا وهو مدّعٍ فيه، موهمٌ الأغمار، أنّه يحسنه ويدريه "[٦].

هذا يعني أنّه يميّز بين علمي الصّرف والتّركيب (الإعراب)، بيد أنّه يُدرجهما معًا تحت مفهوم عامٍّ يجمعهما هو النّحو .

(٤.٢) الصّرف والتّركيب من الاستقلال إلى التّوحُّد :

إذا كان أبو حيّان قد ميّز الصّرف من التّركيب، فإنّ هذا التّمييز من أجل مقتضيات الدّرس والتّحليل لا أكثر . يدلّ على ذلك إلحاحه في أكثر من موضع على أهمية الجمع بينهما، وضرورة تقديم الصّرف على التّركيب ؛ يقول : " لما كان كتابي المسمّى بالتّذييل والتّكميل في شرح التّسهيل قد جمع من هذا العلم ما لا يوجد في كتاب، وفرع بما حازه تآليف الأصحاب، رأيت أنْ أجرِّد أحكامه ... وحصرتُه في جملتين :

الأولى : في أحكام الكلم قبل التّركيب .

الثّانية : في أحكام الكلم حالة التّركيب .

وربما انجرّ بعضٌ من أحكام هذه مع أحكام الأخرى "[١].

ويقول ـ في موضع آخر ـ : " والأحكام الإفراديّة موضوعها علم التّصريف، كان الوجه أنْ تُقدّم ؛ لأنّ معرفة المفرد تتقدّم على معرفة المركّب، وإنّما أُخِّر ذلك لصعوبته واعتياصه "[٢].

على أنّه يتعيّن الإشارة ـ هنا ـ إلى أمرين :

---

[٦] المبدع في التصريف، ص (٤٥، ٤٦) .

[١] الارتشاف، (١/ ٣، ٤) .

[٢] النكت الحسان، ص (٣٤) .

أحدهما : أنّ النّحو شاملٌ للصّرف والتّركيب، والأوّل مستقلٌ عن الثّاني . بيد أنّه استقلالٌ محدودٌ ؛ لأنّ الثّاني خاضعٌ للأوّل، مثل خضوعه للدّلالة والتّداول . وهو أمرٌ تكشّف بعضه هنا وسيتكشّف بعضه الآخر في قابلٍ .

والآخر : أنّ أبا حيّان فرّق بين علم الإعراب والإعراب . والدّليل على ذلك أنّه خصّ الأوّل بالأحكام التّركيبيّة من فاعليّة ومفعوليّة وإضافة وما إلى ذلك، في مقابل الأحكام الإفراديّة الّتي خصّ بها علمَ الصّرف . أمّا الإعراب عنده فهو في مقابل البناء، ولذا قال فيه : " أمّا الإعراب في الاصطلاح : فذهب طائفةٌ إلى أنّه نفسه: هو الحركات اللّاحقة آخر المعربات من الأسماء والأفعال، وعلى هذا فالإعراب عندهم لفظيٌّ، وهو اختيار ابن خروف، والأستاذ أبي علي، وابن الحاجب، وابن مالك، إذ قال في التّسهيل : الإعراب ما جيء به لبيان مقتضى العامل من حركة أو حرف أوسكون أو حذف، وذهب متأخروا أصحابنا، وطائفة إلى أنّ الإعراب معنويٌّ، وهو تغيير في آخر الكلمة، أو ما كالآخر لعاملٍ دخل عليها نفسها، والحركات علامات الإعراب، ودلائل عليه، وهو ظاهر قول سيبويه، واختيار الأَعْلَم"[٣].

وهو ما يعني أنّ الإعراب فرعٌ عن علم الإعراب، الّذي يشكّل مع علم الصّرف موضوعَيْ علم النّحو .

٣ : مفهوم النّحو في تفسير البحر المحيط :

(٣ـ١) اللّحن النّحْويّ واللّحن التّداوليّ :

لعلّه قد بان مما سبق أنّ نحو أبي حيّان يمكن تصنيفه تحت النّحو الشّكليّ الدّلاليّ . وقد مرّ بنا أنّ وظيفة النّحو عنده تكمن في فهم النّصّ القرآنيّ . وعلى الرّغم من إلحاحه على هذا الأمر في أكثر من موضع في الخطاب الافتتاحيّ لمؤلّفاته سوى "البحر المحيط"، إلا أنّ هناك من الأدلة

[٣] الارتشاف، (٢/ ٨٣٣)، وانظر نحوه في: التذييل والتكميل، (١ / ١١٥ ـــ ١١٧)، وتقريب المقرب، ص (٤٣)، و النكت الحسان، ص (٣٤) .

ما يؤكّد أنّه لم يقصد النّحو الّذي انطوت عليه تلك المؤلّفات، وهو ما اصطلحنا عليه بالنّحو المجرّد . يكفي أنْ أذكر هنا من بين هذه الأدلة، اختزاله وظيفة علم الإعراب أو التّركيب في إصلاح اللّسان العربيّ وعصمته من الوقوع في اللّحن . وهي وظيفة معيارية تذكّرنا بروايات نشأة النّحو العربيّ، الّتي يتّكئ عليها بعض الدّارسين في أنّ النحو العربيّ نشأ لغاية معياريّة بحتة . والسّؤال الّذي يطرح نفسه هنا : كيف يرى أبو حيّان أنّ وظيفة النّحو تنحصر في فَهْم النّصّ القرآنيّ، ثمّ يأتي صنيعه في مؤلّفاته سوى "البحر المحيط" مغايراً لهذه الرّؤية ؟!

إنّ جانبًا من الإجابة على هذا السّؤال، تكمن في الفرق بين اللّحْن النّحْويّ واللّحن التّداوليّ . وقد جرت العادة أنْ يكون النّوع الأوّل هو الشّائع في التّراث اللّغويّ العربيّ . ويُقصد به الخرقُ الذي يَعْتَور اللّغة على مستواها النّحويّ غالبًا وعلى مستواها الصّرفيّ أحيانًا . بيد أنّ مفهوم اللّحن قد يتّسع فيتعدّى هذين المستويين إلى المستوى التّداوليّ، فيسمّى اللّحنُ عندئذ باللّحن التّداوليّ . ويعني عدم التّطابق بين النّسبة الكلاميّة والنّسبة الواقعيّة الخارجيّة والنّسبة العقليّة[1]. هذا على أساس أنّ التّداوليّة تشمل : المجاز والاستعارة والكناية، والدّلالات المقاميّة، إضافة إلى الدّلالات الإشاريّة[2]. ويشير عدم التّطابق هذا إلى غياب الملاءمة السّياقيّة أو وقوع خطأ تداوليّ . وهذا الخطأ لا يمزّق قوانينَ صوتيّةً أو نحويّة أو دلاليّة، وإنّما يحصل نتيجة خرق أحد مبادئ محدّدات السّياق الاجتماعيّة والثّقافيّة[3]. من هنا أشار بعض اللّغويّين إلى أنّ النّحو لا يمكن أنْ يقتصر

---

[1] انظر : البعد التداولي عند سيبويه، مقبول إدريس، ص (٢٤٦)، والتداولية في النحو العربي، د/ فيصل مفتن كاظم، ص (٤٣، ٤٤) .

[2] انظر : اللسانيات (المجال والوظيفة والمنهج)، د/ سمير شريف استيتية، ص (٢٨٩) .

[3] انظر : التداولية في النحو العربي، ص (٤٣) .

على وصف الجانب السِّيميوطيقيِّ لإلحاق المعنى بالصّوت، ويجب أنْ يشتمل على تداوليّة الموقف الكلاميِّ[٤] .

وقد أدرك النّحاة العرب القدامى ملامح الفرق بين هذين النّوعين من اللّحن ؛ فقد جاء في كتاب سيبويه قوله ـــ تحت باب : الاستقامة من الكلام والإحالة ـــ : " فمنه مستقيم حسن، ومحال، ومستقيم كذب، ومستقيم قبيح، وما هو محالٌ كذب . فأمّا المستقيم الحسن فقولك : أتيتك أمس وسآتيك غداً . وأمَا المحال فأنْ تنقض أوّل كلامك بآخره، فتقول : أتيتك غداً وسآتيك أمس . وأمّا المستقيم الكذب فقولك: حملت الجبل، وشربت ماء البحر، ونحوه . وأمّا المستقيم القبيح فأنْ تضع اللّفظ في غير موضعه، نحو قولك : قد زيداً رأيت، وكي زيد يأتيك، وأشباه هذا . وأمّا المحال الكذب فأنْ تقول : سوف أشرب ماء البحر أمس"[٥].

فالأمثلة الدّاخلة تحت المستقيم الكذب والمحال الكذب، هي أمثلة لاحنة تداوليًا ؛ لانعدام التّطابق بين نسبتها الكلاميّة ونسبتها الواقعيّة . ولذا قال أبو سعيد السيرافيُّ ـ معلّقًا على كلام سيبويه ـــ : " وإنما خُصّ " حملت الجبل " و " شربت ماء البحر " بالكذب ؛ لأنّ ظاهرهما يدلُّ على كذب قائلهما، قبل التّصفّح والبحث، وإلّا فكلُّ كلام تُكلّم به، وكان مخْبَرُه على خلاف ما يوجبه الظّاهر فهو كذبٌ، علم أو لم يعلم، كقول القائل : " لقيت زيداً اليوم" و "اشتريت ثوبًا"، إذا لم يكن الأمر على ما قال، فهو مستقيمٌ كذب "[١].

---

[٤] انظر : إسهامات أساسية في العلاقة بين النص والنحو والدلالة، مجموعة باحثين، ترجمة : د/ سعيد حسن بحيري، ص (٢٦١) .

[٥] الكتاب (كتاب سيبويه)، تحقيق : أ/عبد السلام محمد هارون، (١ / ٢٥، ٢٦).

[١] شرح كتاب سيبويه، لأبي سعيد السيرافي، تحقيق : أحمد حسن مهدلي وعلي سيد علي، (١/ ١٨٦، ١٨٧) .

أمّا الأمثلة الدّاخلة تحت المحال والمستقيم القبيح، فهي أمثلة لاحنة نحويًا ؛ لأنّ الخلل قد اعتورها من جانب اللّغة أو النّحو، يقول السّيرافي : " ومعنى المحال أنّه أحيل عن وجهه المستقيم، الذي به يفهم المعنى إذا تكلّم به "[٢]، ويقول أيضًا : " الكلام ينقسم قسمين : كلام ملحون، وكلام غير ملحون، فالملحون هو الذي لحن به عن القصد، وكذلك معنى اللّحن، إنّما هو العدول عن قصد الكلام إلى غيره، وما لم يكن ملحونًا فهو على القصد، وعلى النّحو، ومن ذلك سُمّي النّحوُ نحوًا، والمستقيم عن طريق النّحو هو ما كان على القصد سالمًا من اللّحن، فإذا قال : " قد زيدًا رأيت " فهو سالمٌ من اللّحن، فكان مستقيمًا من هذه الجهة، وهو مع ذلك موضوعٌ في غير موضعه، فكان قبيحًا من هذه الجهة"[٣].

أمّا المثالان الموصوفان بالمستقيم الحسن، فهما سالمان من اللّحن النّحْويّ واللّحن التّداوليّ، ما لم يصدّ عن ذلك صادٌ . ولذا يقول السّيرافي : " كلُّ كلام تكلّم به متكلمٌ، فأمكن أنْ يكون على ما قال، ولم يكن في لفظه خللٌ من جهة اللّغة والنّحو، فهو كلامٌ مستقيم في الظّاهر، وقد تبيّن في مثل هذا أنّ قائلَه كاذبٌ فيما قاله، فتحكم على كلامه أنّه كذب غير مستقيم من حيث كان كذبًا، إلا أنّه مستقيمُ اللّفظ "[٤].

اللّحن النّحويّ إذن هو اللّحن الّذي يتكفّل بدفعه النّحو المجرّد . وهو غير محتاج إلى أكثر من هذا النّوع ؛ لأنّ الخلل الواقع في التّركيب هو من جهة اللّفظ أو الشّكل فقط . ولذا رأى أبو حيّان أنّ النّحو بشقّيه الإفراديّ والتّركيبيّ كفيلٌ بالتّصدّي لهذا الخلل .

بيد أنّ هذا النّحو غيرُ صالح في التّعامل مع النّصّ القرآنيّ ؛ لأنّ النّصّ القرآنيّ منفتحٌ على الاستعارة والكناية والمجاز، والدّلالات المقاميّة

---

[٢] المرجع السابق، (١ / ١٨٦) .

[٣] المرجع السابق، (١/ ١٨٧) .

[٤] المرجع السابق، (١ / ١٨٦) .

والدِّلالات الإشاريّة، ومقاصد المتكلّم وتنوّع المخاطَبين . وكلّ هذا يحتاج إلى نحو آخرَ يستوعب كلّ الدِّلالات ويستدعي كلّ المقامات، ويأخذ في اعتباره أغراضَ المتكلِّم وطبيعةَ المتلقّي . ولذا كان النّحو التّفسيريّ أو النّحو القرآنيّ .

وتتجلّى ملامح هذا النّحو في أكثر من موضع في تفسير "البحر المحيط" ؛ ففي توضيحه للمقصود من الأحكام الإفراديّة والتّركيبيّة الّتي ينطوي عليها علم التّفسير، يقول : " وقولنا : وأحكامها الإفراديّة والتّركيبيّة، هذا يشمل علم التّصريف وعلم الإعراب وعلم البيان وعلم البديع، ومعانيها الّتي تحمل عليها حالة التّركيب، شمل بقوله الّتي تحمل عليها ما لا دلالة عليه بالحقيقة وما دلالته عليه بالمجاز ؛ فإنّ التّركيب قد يقتضي بظاهره شيئًا ويصدّ عن الحمل على الظاهر صادٌّ، فيحتاج لأجل ذلك أنْ يحمل على غير الظّاهر وهو المجاز "[٥].

ويبدو أنّ الأحكام الإفراديّة والتّركيبيّة هنا قد نالها التّوسّع ؛ فقد كانت في مؤلّفاته الأخرى قاصرةً على علمَيْ

التّصريف والإعراب، في حين أنّها هنا تجاوزت هذين العلمين لتشمل علمين آخرين ؛ هما البيان والبديع .

- البحر المحيط ◄ علم التّصريف + علم الإعراب + علم البيان + علم البديع(البلاغة) = علم النّحو.
- الكتب الأخرى ◄ علم التّصريف + علم الإعراب = علم النّحو.

هذا يعني تطعيمه النحوَ المجرّد بعلوم البلاغة عند التّعامل مع النّصّ القرآنيّ ؛ وذلك لأنّه على قناعة بضرورة الدّمج بينهما في التّفسير ؛ يدلّ على ذلك قوله في الشّروط الواجب توافرها في المفسِّر : " إنّ علم

[٥] البحر المحيط، (١ / ١٢١) .

التّفسير ليس متوقّفًا على علم النّحو فقط كما يظنّه بعض النّاس، بل أكثر أئمّة العربيّة هم بمعزل عن التّصرّف في الفصاحة والتّفنّن في البلاغة، ولذلك قلّت تصانيفهم في علم التّفسير، وقلّ أنْ ترى نحويًا بارعًا في النّظم والنّثر، كما قلّ أنْ ترى بارعًا في الفصاحة يتوغّل في علم النّحو ، قد رأينا من ينسب للإمامة في علم النّحو وهو لا يحسن أنْ يَنطق بأبياتٍ من أشعار العرب، فضلًا عن أنْ يعرف مدلولها، أو يتكلّم على ما انطوت عليه من علم البلاغة والبيان، فأنّى لمثلْ هذا أنْ يتعاطى علمَ التّفسير"[1].

فقوله : " إنّ علم التّفسير ليس متوقفًا على علم النّحو فقط كما يظنّه بعض النّاس "، يدلّ على أنّ بعض النّحاة يظنّون أنّ النّحو المجرّد من البلاغة هو النّحو الكافي في التّعامل مع النّصّ القرآنيّ . وهذا غير صحيح في نظره ؛ لأنّ النّحو الّذي يظنّونه مختلف عن النّحو المطعّم بأدوات جديدة تتناسب وهذا النّصّ، إنَه النّحو المنصهر في علوم البلاغة . ومن ثمّة، فأيّ نحو يكون بمعزل عن البلاغة فإنّه ينفي اللّحن النّحويّ عن التّركيب، ولكن ليس بمقدوره نفي اللّحن التّداوليّ عنه .

إنّ تفريق أبي حيّان بين نوعي النّحو، ثم إضافة البلاغة إلى النّحو في تفسيره، هو عينُ ما ذهب إليه بعض اللّغويّين المحدثين، يقول الدّكتور عيد بلبع : " لعلّ الحقيقة الّتي لا تقبل الجدال هي أنّ معنى الجملة (المعنى الحرفيّ أو المعنى النّحويّ) له أهمية كبيرة في عمليّة التّحليل التّداوليّ، ومن ثمّ فإنّ نقطة البدء عند ليتش اهتمّت بالتّمييز بين النّحو والتّداوليّة، بوصف التّداوليّة هدفًا مباشرًا ومتطوّرًا، لذلك فهو يطمح من مؤلّفه هذا إلى أنْ يساعد في استحداث مدخل جديد بين النّحو والبلاغة، بوصف البلاغة العلم القديم الذي يحمل بذور التّداوليّة، ثم يشير إلى أنّ الافتراض الّذي ينبغي أنْ يُنطلق منه لدراسة هذا التّمييز بين التّداوليّة والنّحو والدّلالة، بوصف الدّلالة أحد مستويات التّركيب النّحويّ، هو أنّ

[1] البحر المحيط ، (١/ ١١١) .

النّحو بوصفه دراسة النّظام الشّكليّ للُّغة، والتّداوليّة بوصفها مبادئ استعمال اللُّغة، حقلان متبادلان في اللِّسانيّات، فلا يمكن أنْ تفهم طبيعة اللُّغة بدون دراسة كلا الحقلين، ودراسة التّفاعل بينهما "[٢].

فما أراد استحداثه ليتش في أمر العلاقة بين النّحو والبلاغة، قد سبقه إليه أبو حيّان بمئات السِّنيين . إنّ هذا الدّمج بين النّحو والبلاغة يشكّل انفتاحًا في مفهوم النّحو عند أبي حيّان . بيد أنّ هذا الدّمج يفرض فيه النّحو سلطته على البلاغة ؛ بمعنى أنّ البداية يتعيّن أنْ تكون من النّحو ثم يستدعي النّحْوُ البلاغةَ ؛ لأنّه لا سلامة للتّركيب من اللّحن التّداوليّ بدون السّلامة أوّلًا من اللّحن النّحويّ ؛ يقول الدّكتور مصطفى ناصف : " إنّ فكرة النّحو في النّقد العربيّ يجب أنْ تكون عُرفت بدرجة كافية . وبعبارة أخرى لابد لنا من أنْ نأخذ بمبدأ التّعريف المتنوّع . النّحو إعراب، والنّحو نظام الكلمات . والنّحو سلطة أيضًا . ومفهوم السُّلطة يمكن أنْ ينير لنا بعض الأعماق . السُّلطة واضحة في دعوى الإفراد، ودعوى التّعريض، ودعوى تنبيه السّامع، ودعوى منع السّامعين من الشّكّ والشُّبهة . السُّلطة قريبة من فن المديح والافتخار . مبدأ التّعريف المتنوّع لا غنى له في تبيُّن نشاط النّحو الجماليّ: النّحو كذلك إجلال وتشريف. والسُّلطة كلمة يمكن أنْ تفهم في ضوئها مواضع كثيرة ممّا سُمِّي علم المعاني . السُّلطة مدافعة للصّخب والتّمرُّد، والخروج على الأعراف . النّحو سلطة بمعنى آخر لأنّه يحمي اللُّغة من عنف التّطوُّر، ويصوِّر في الوقت نفسه عبقريّة العربيّة . وعبقريّة العربيّة لا تخلو من معنى أخلاقيّ ونفسيّ وروحيّ . والنُّظم النّقديّة أو البلاغيّة لها نظائر من اصطلاحات النّحويّين واستنباطاتهم . وجملة هذه النُّظم يمكن التّعبير عنها بطريقة ما إذا استعملنا كلمة السُّلطة "[١].

---

[٢] التداولية البعد الثالث في سيميوطيقا موريس، ص (٤١) .

[١] النقد العربي (نحو نظرية ثانية)، د/ مصطفى ناصف، ص (٢٣) .

(٣ـ٢) النّحْوُ بينَ شروطِ الإنتاجِ وقواعدِ التّفسيرِ :

ما دمنا نتحدّث ـ في ضوء مدوّنة أبي حيّان ـــ عن نَحْوين : نحو قرآنيٍّ (تفسيريٍّ) ونحو غير قرآنيٍّ (مجرّد)، فنحن ـــ في واقع الأمر ـــ نتحدّث عن قدرتين : قدرة لغويّةٍ وقدرة خطابيّة . وتعني القدرة اللّغويّة : المعرفة الّتي يختزلها المتكلّم ـ السّامع عن طريق الاكتساب . وهي الّتي تمكّنه من إنتاج عدد غير متناهٍ من العبارات السّليمة وتأويلها[٢]، في حين تعني القدرة الخطابيّة: المعرفة الّتي يختزلها المتكلّم ـــ السّامع وتمكّنه من إنتاج خطاب متّسق، يتجاوز معرفة أوضاع اللّغة إلى معرفة تنظيم الخطاب وإحكام بنيته بما يناسب الغرض المتوخّى[٣].

وهاتان القدرتان تمثّل الأولى منهما النّحو بمفهومه التّقليديّ، وتمثّل الأخرى النّحو بمفهومه الشّامل الّذي يتناسب مع خصوصيّة النّصّ القرآنيّ

- النّحو التّقليديّ (المجرّد) = القدرة اللّغويّة .
- النّحو القرآنيّ (التّفسيريّ) = القدرة اللّغويّة + القدرة الخطابيّة .

وفي هذا المعنى يقول عبد القاهر الجرجاني : " ثمّ إنّا نعلم أنّ المزيّة المطلوبة في هذا الباب [أي : باب الفصاحة] مزيّة فيما طريقه الفكر والنّظر من غير شبهة ... ومن هنا لم يجز إذا عُدّ الوجوه الّتي تظهر بها المزيّة أنْ يُعدّ فيها الإعراب . وذلك أنّ العلم بالإعراب مشتركٌ بين العرب كلّهم، وليس هو مما يستنبط بالفكر، ويستعان عليه بالرّويّة ... ومن ثمّ لا يجوز لنا أنْ نعتدّ في شأننا هذا بأنْ يكون المتكلّم قد استعمل من اللّغتين في الشّيء ما يقال "إنّه أفصحهما"، أو بأنْ يكون قد تحفّظ ممّا تخطئ فيه العامّة، ولا بأنْ يكون قد استعمل الغريبَ لأنّ العلم

---

[٢] انظر : المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي، ص (٢٦) .

[٣] انظر : المرجع السابق، ص (١٩٩) .

بجميع ذلك لا يعدو أنْ يكون علمًا باللّغة ... وبما طريقه طريق الحفظ، دون ما يستعان عليه بالنّظر، ويوصل إليه بإعمال الفكر"[٤].

وتتوقّف معرفة تنظيم الخطاب وإحكام بنيته على محاولة إقامة جسور الانسجام بين شروط إنتاجه وقوانين تفسيره . وتنحصر شروط الإنتاج في علم المعاني الّذي يهتمّ أساسًا بالموقف الخارجيِّ (المقام)؛ وذلك لكونه يهتم بمطابقة الكلام لمقتضى الحال، في حين تنحصر قوانين التّفسير في علم البيان الّذي يهتمّ أساسًا بالموقف الداخليِّ أو المراد ؛ وذلك لكونه يهتمّ بمطابقة الكلام للمراد منه . ومع ذلك تبقى مسائل العلمين متداخلة بعض الشّيء ؛ لأنّ ما هو شرطٌ قد يعدّ قانونًا والعكس بالعكس[١].

وإذا نظرنا إلى مدوّنة أبي حيّان التّفسيريّة، فسنجد أنّه قصر القدرة الخطابيّة على علمي البيان والبديع. والسّؤال : لماذا حصر البلاغة في هذين العلمين دون علم المعاني ؟

لم يذكر أبو حيّان علم المعاني، وإنّما كان كلّ حديثه منصبًا على البيان أولًا ثم البديع ثانيًا . وقد ربط بينهما وبين حسن التّراكيب وفصاحته ؛ يقول ـ في العلوم التي يحتاج إليها المفسّر ـــ : " الوجه الثّالث : كون اللّفظ أو التّركيب أحسن وأفصح، ويؤخذ ذلك من علم البيان والبديع "[٢]. والغريب في الأمر أنّه احتفى بخطبة تفسير الكشّاف، لدرجة جعلته ينقلها بنصّها في مدوّنته . ومع ذلك فالزّمخشريّ يرى أنّه

---

[٤] دلائل الإعجاز، لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق : أ/ محمود محمد شاكر، ص (٣٩٥، ٣٩٦) .

[١] انظر : بنية العقل العربي، د/ محمد عابد الجابري، ص (٩٧، ٩٨) .

[٢] البحر المحيط، (١/ ١٠٧) .

لا يغوص على شيء من حقائق النّص القرآنيّ إلّا مَنْ برع في علمين مختصّين بالقرآن ؛ هما : علم المعاني، وعلم البيان[٣].

هذا يعني أنّ الزّمخشريّ قد ترك علم البديع وأثبت علم المعاني إلى جانب علم البيان، في حين أنّ أبا حيّان قد ترك علم المعاني وأثبت علم البديع إلى جانب علم البيان كذلك. وقد أرجع أحد الباحثين ذلك إلى أنّ علوم البلاغة لم تكن قد تحدّدت بعد، وأنّ البيان عند أبي حيّان يشتمل على علمي المعاني والبيان معًا . كما أنّ علم البيان عند الزمخشري يشمل البديع على التّغليب[٤].

وهذا التّفسير له سندٌ من التّراث البلاغيّ، فقد جاء في "الإيضاح" : " ما يعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية تطبيقه على مقتضى الحال وفصاحته هو علم البديع . وكثير من النّاس يسمّي الجميع علم البيان، وبعضهم سمّى الأوّل علم المعاني والثّاني والثّالث علم البيان، والثّلاثة علم البديع "[٥].

على أنّ أبا حيّان كان يطلق مصطلح البيان على مسائل علمَيْ المعاني والبديع جميعًا ؛ يدلّ على ذلك تعليقه على قوله ــ تعالى ــ :﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾[البقرة :٢/ ٢٠٣]، بقوله : " وفيها من علم البيان المقابلة اللّفظيّة ؛ إذ المتأخّر أتى بزيادة في العبادة فله زيادة في الأجر"[٦]. والمقابلة ــ كما هو معلوم ـ من علم البديع .

---

[٣] انظر : الكشاف، للزمخشري، تحقيق : الشيخ / عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، (١/ ٩٦)، والبحر المحيط، (١/ ١١١) .

[٤] انظر : البحث البياني في تفسير البحر المحيط، د/ عطية جمعة هارون، ص (٢٣) .

[٥] الإيضاح في علوم البلاغة، للخطيب القزويني، طبعة دار الجيل، ص (٩) .

[٦] البحر المحيط، (١٢١/٢) .

ويدلّ على ذلك أيضًا تعليقه على قوله ـــ تعالى ـــ: بزوَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُبر[البقرة: ٢/٢١٠]، بقوله : " قسمان من أقسام علم البيان : أحدهما : الإيجاز في قوله بزوَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُبر فإنّ في هاتين الكلمتين يندرج في ضمنها جميع أحوال العباد منذ خلقوا إلى يوم التّناد، ومن هذا اليوم إلى الفصل بين العباد . والثّاني: الاختصاص بقوله بز وَإِلَى ٱللَّهِبر فاختصّ بذلك اليوم لانفراده فيه بالتّصرّف والحكم والملك"[1]. والإيجاز والاختصار ـ كما هو معلوم ـــ من علم المعاني .

وسواءً أكان علم البيان يساوي الوجوه البلاغيّة عنده أم كان فرعًا عن البلاغة، فإنّ ما يهمّنا هو أنّ أبا حيّان قد أدرك ما ينتظم به الخطاب القرآنيّ من شروط إنتاج وقواعد تفسير، وعمل على توظيفها في فهمه، وجعلها أنموذجًا لمن أراد تعاطي علم التّفسير .

ولا ريب أنّ صنيعه هذا ـــ وصنيع غيره من النّحاة كذلك ـــ يضفي على النّحو مسحة تداوليّة Pragmatisation، تنقله من حيّز الجملة إلى رحاب النّصّ، ومن رحاب النّصّ إلى فضاء الخطاب ؛ يقول الدّكتور مسعود صحراوي: " لعلّ من مظاهر العبقريّة عند بعضهم، أنّهم لم يفهموا من اللّغة أنّها منظومة من القواعد المجرّدة فحسب، وإنّما فهموا منها أيضًا أنّها لفظ معيّن يؤدّيه متكلّم معيّن في مقام معيّن لأداء غرض تواصليّ إبلاغيّ معيّن . ولذلك جعلوا من أهداف الدّراسة النّحويّة إفادة المخاطب معنى الخطاب، وإرسال رسالة إبلاغيّة إليه "[2].

وعلى هذا، يمكننا أنْ نقول مطمئنّين إنّ " البلاغة في عمق تكوينها، وأهدافها هي التّداوليّة ؛ لأنّ كليهما يعتمدان طرفي معادلة الاتّصال :

---

[1] البحر المحيط، (٢/١٣٤، ١٣٥) .

[2] التداولية عند العلماء العرب، د/ مسعود صحراوي، ص (١٧٤) .

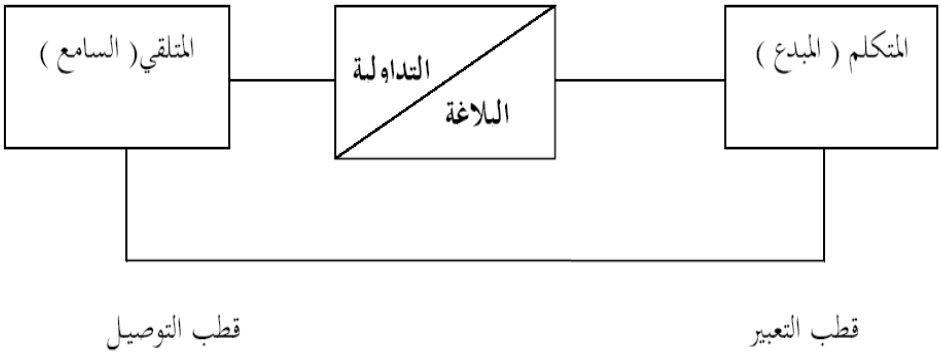

... فالنّصّ باعتباره مجموعة من العمليات السِّيميولوجيّة، والممارسات اللُّغويّة في داخل هذه الدّائرة، لابدّ أنْ يخضع أثناء عملية الجريان التّوظيفيِّ لشروط التّداوليّة حتّى يحقّق الهدف البلاغيّ"[٣].

على أنّه ينبغي القول إنّ أبا حيّان لم يكتفِ في شروط إنتاج الخطاب بمسائل علم المعاني، وإنما وسّع من

دائرة هذه الشّروط، فأدخل فيها ما هو من خارج علوم اللِّسان ؛ مثل : النّاسخ والمنسوخ، وسبب النّزول، والمكّيِّ والمدنيِّ، ونحو ذلك، وجعلها من تتمّات هذه العلوم[١].

إنّ الفصل الذي قام به أبو حيّان بين النّحو المجرّد والنّحو التّفسيريِّ لم يكن نهائيًا، وإنّما كان عملًا منهجيًا؛ فقد عدّ أوّلًا علم الصّرف مقدّمة ضروريّة لعلم الإعراب، وجعلهما معًا علمًا واحدًا يمثّل الجانب الشّكليّ الدّلاليّ للّغة، وسمّاه علم النّحو . ثم عدّ ثانيًا علمي البيان والبديع من تمام هذا العلم الشّكليِّ الدّلاليِّ، وجعلها كلّها علمًا واحدًا يؤالف بين ما هو شكليٌّ وما هو استعماليٌّ، وسمّاه كذلك علم النّحو .

---

[٣] البلاغة والأسلوبية، عبد القادر عبد الجليل، ص (٤٣)، نقلًا عن البعد التداولي في البلاغة العربية من خلال مفتاح العلوم للسكاكي، رسالة ماجستير، للباحثة/ أم الخير سلفاوي، ص (٥٢، ٥٣) .

[١] البحر المحيط، (١/ ١٢١) .

إذن ما أراده أبو حيّان هو الفصل في كتبه سوى "البحر المحيط" بين مباحث النّحو ومباحث البلاغة ؛ لأنّ هذا الفصل يناسب الشّاهد والمثال اللّذين يكفيهما النّوع الأوّل؛ وذلك لأنّهما ـ في رأيي ـ أشبه في الغالب بالجمل الّتي بلا كلام ؛ أي الملفوظات غير المعزوّة إلى المتكلّم، الّتي تمثّل خواطر منسوبة إلى الذّاتيّة أو إلى وجهة نظر شخصيّة[٢]. في حين لم يستطع هذا الفصلَ في "البحر المحيط" ؛ وذلك لأنّه نصٌّ، وفهم النّصِّ في حاجة إلى تضافر علوم المبنى (الصّرف والإعراب) وعلوم المعنى (علوم البلاغة).

وهو ما يعني أنّ المعطى اللّغويّ هو المتحكّم في تحديد المدخل النّحْويِّ المناسب . ويترتّب على تحديد المدخل المناسب أحدُ أمرين : إمّا الانقطاع بين علوم المبنى وعلوم المعنى كما في النّحو المجرّد، وإمّا التّقاطع بينها كما في النّحو التّفسيريِّ .

وقد تباينت آراء اللّغويين المحدثين حول جدليّة الانقطاع والتّقاطع هذه ؛ فذهب الأستاذ إبراهيم مصطفى ـــ مثلًا ـــ إلى أنّ النّحاة حين حدّدوا النّحو وضيّقوا بحثه، حرموا أنفسهم وحرمونا من الاطّلاع على كثير من أسرار البلاغة وأساليبها المتنوّعة، ومقدرتها في التّعبير، فظلّت هذه الأسرار مجهولة[٣].

في حين وقف الدّكتور عبد الفتاح لاشين ـ مثلًا ـــ موقفًا مغايرًا ؛ إذ رأى أنّ المتأمّل في كتب النّحاة والبلاغيّين، يجد كلًّا من الفريقين قد قطعوا في البحث عن دقائق الأساليب أشواطًا واسعة، وبلغوا فيها غايات بعيدة، وكان كلٌّ منهم في اختصاصه، فلم يريدوا أنْ يتخطّوا حدودهم إلى موضوعات يبحث عنها في غير اختصاصهم . وعليه، فالنّحاة ـ في رأيه ـ لم يتركوا البحث عن وجه من وجوه النّظم في الكلام لعجزٍ منهم،

---

[٢] انظر : معجم تحليل الخطاب، مجموعة باحثين، بإشراف : باتريك شارودو ودومينيك منغنو، ترجمة : عبد القادر المهيري وحمادي صمود، ص (١٨٨) .

[٣] انظر : إحياء النحو، أ/ إبراهيم مصطفى، ص (٢، ٣) .

ولكن احترامًا لفنِّهم واعتزازًا باختصاصهم، وأنفة منهم أنْ يدّعوا لفنِّهم ما يرون أنّ غيرهم أحقٌ به منهم[٤].

وأرى أنّ كلا الموقفين فيه تجنٍّ على النُّحاة والبلاغيِّين جميعًا ؛ فلا النُّحاة ضيّقوا من حدود البحث، ولا كان مردّ التّضييق المزعوم هذا اعتزازُ كلِّ فريقٍ باختصاصه . الأمرُ كما بيّنّاه ـــ على الأقل بالنِّسبة لأبي حيّان ـــ هو قصدُ الفصل المنهجيِّ لغايات تعليميّة وعلميّة، إضافةً إلى طبيعة المعطى اللُّغويِّ الّذي يستدعي من علوم اللِّسان ما يُلائمه .

ولعلّ هذا الفصل التّراتُبِيّ سنّةٌ تعليميّة لها وجاهتها . والدّليل على ذلك أنّها ما زالت متّبعة حتّى الآن في دوائر تعليم العربيّة ؛ يقول الدّكتور صابر الحباشة : " العمل النّحْويُّ والبلاغيُّ يتمّ على موضوع واحد، وإنْ كان لكلِّ واحد منهما منظورٌ خاصٌّ . ونشير إلى أنّه جرى في السّنّة التّعليميّة أنْ يتمّ تقديم تدريس النّحو على البلاغة، وذلك عصمة للتّلاميذ من الخطأ في التّركيب وبناء الجمل، وبعد ذلك ينتقل إلى الوجوه الجماليّة للكلام "[١].

هذا يعني أنّ الرجل كان على وعيٍ بالمسافة بين اللِّسانيّات المضيّقة واللِّسانيّات الموسّعة، بالتّعبير اللِّسانيِّ الحديث ؛ يقول الدّكتور مُحمّد يونُس : " عندما يقصر اللُّغويُّ اهتماماته البحثيّة على بنية اللُّغة، وأنظمتها دون أنْ يتطرّق إلى الأبعاد النّفسيّة، أو الاجتماعيّة، أو العرقيّة، أو الأدبيّة فإنّه يبحث في اللِّسانيّات المضيّقة Microlinguistics . أمّا إذا اختلط البحث ببعض الأبعاد والجوانب السّابقة فسيندرج في اللِّسانيّات

---

[٤] انظر : التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر، د/ عبد الفتاح لاشين، ص (٢٣٤) .

[١] التداولية والحجاج، د/ صابر الحباشة، ص (١٣٤) .

الموسّعة"[٢]. ويدخل مفهوم النّحو المجرّد تحت اللّسانيّات المضيّقة، في حين يدخل مفهوم النّحو التّفسيريّ تحت اللّسانيّات الموسّعة .

وقد يقال إنّ صنيع أبي حيّان هنا أشبه بالانشقاق الواقع في اللّسانيّات، الّتي اتّخذت ـ كما يقول الدّكتور أحمد المتوكّل ـــــ " منحيين رئيسيين اثنين : منحى يقول بكفاية الجملة في التّمثيل لخصائص اللّسان الطّبيعيّ، ومنحي يعدّ النّصّ المتكامل المعطى اللّغويّ الوحيد الّذي يمكن أنْ يضطلع بهذه المهمّة . ونتج عن هذين المنحيين نمطان من اللّسانيّات : " لسانيّات الجملة " و " لسانيّات النّصّ " ... إنّ هذا الانشقاق الواقع في الدّرس اللّسانيّ يشكّل وضعًا غير سليم ؛ لأنّه مبنيٌّ على تمييز تقابليّ غير مبرّر يجب أنْ يرتفع "[٣].

بيد أنّ هذا القول ـ في رأيي ـ لا يمكن أن يصدق على صنيع أبي حيّان ؛ لأنّ الرّجل كان مدركًا لطبيعة المعطى اللّغويّ المدروس ولطبيعة النّحو الّذي يناسبه ؛ فلم يكن يفضّل نحوًا على آخر، وإنّما كان يفصل بين نحوٍ وآخر، كما كان يفصل بين معطىً وآخر.

٤ ـ نحو أبي حيّان في ضَوْء قواعد التّفكير العلميّ :

يرى الباحثون في مناهج البحث العلميّ أنّ التّفكير هو النّشاط الّذي يقوم به الفرد ؛ بغية الوصول إلى حلّ المشكلات الّتي تواجهه[٤]. على أنّ السّمة الّتي تجعل هذا النّشاط علميًا هي التّنظيم ؛ فمتى كان النّشاط العقليّ الّذي يمارسه الإنسان من أجل حلّ المشكلات الّتي تعترضه منظّمًا، سمّينا هذا النّشاط تفكيراً علميًا[٥].

---

[٢] مدخل إلى اللسانيات، د/ محمد محمد يونس علي، ص (٢١) .

[٣] الوظيفية بين الكلية والنمطية، د/ أحمد المتوكل، ص (١٥) .

[٤] انظر: مناهج البحث العلمي بين النظرية والتطبيق، يحيى إسماعيل نبهان، ص (٤٣) .

[٥] انظر: القاعدة اللغوية والقراءات القرآنية (دراسة في إشكالية الرفض والقبول في ضوء قواعد التفكير العلمي)، د/ عمر رشيد السامرائي، ص (٢٤٤) .

ويتأسّس التّفكير العلميّ على عدد من الخصائص المنهجيّة، حدّدها بعض الباحثين فيما يأتي[٦]:

١ـــ التّراكميّة .

٢ ـ التّنظيم .

٣ ـ البحث عن الأسباب .

٤ ـ الشّموليّة واليقين .

٥ ـ الموضوعيّة .

٦ ـ التّماسك .

هذه هي خصائص العلم المضبوط الّتي تميِّزه من العلم غير المضبوط . بيد أنّ العلم غير المضبوط قد تتحقّق فيه بعض هذه الخصائص ؛ فقد يتّصف بالموضوعيّة مثلًا . ولكن موضوعيّته تنبني على الاستقراء التّامِّ دون النّاقص، وليس من عناصرها إمكان تحقيق النّتيجة وضبطها . وهي خصيصة يمكن ملاحظتها في فقه اللّغة ؛ إذ إنّه لا يقوم على التّقعيد وإنّما يقوم على الاستيعاب . هذا بخلاف النّحو الّذي يقوم على التّقعيد ويتحقّق فيه كلّ الخصائص السّابقة[١].

وعلى ذلك، فقد رأى الدّكتور تمّام حسّان أنّ مفهوم الصّناعة يرادف مفهوم العلم عند العرب . والدّليل على ذلك أنّهم أطلقوا مصطلح الصّناعة على النّحو، ولم يطلقوه على اللّغة أو فقه اللّغة أو متن اللّغة ؛ وذلك

[٦] انظر: التفكير العلمي، د/ فؤاد زكريا، ص (١٧، ٢٧، ٣٧، ٤٦)، والأصول، د/ تمام حسان، ص (١٥ ـــ ١٩) .

[١] انظر : الأصول، ص (١٩، ٢٠) .

لكونه علمًا غير مضبوط . وقد خلص من ذلك إلى أنّ حقائق المعارف موضوعات للاستيعاب، وحقائق الصِّناعات موضوعات للقياس[٢].

والسُّؤال : هل استجاب نحْوُ أبي حيّان للخصائص السّابقة ؟ وهل تجلّى فيه ما يشير إلى وعي صاحبه بالفرق بين العلم والمعرفة، على النّحو الذي بيّنه الدّكتور تمّام حسّان ؟

هذا ما سيُفصح عنه العنصر القابل .

(٤ـ١) النّحو بين العلم والمعرفة :

ورد عند أبي حيّان ما يشير بجلاء إلى أنّه كان ينظر إلى النّحو على أنّه علم أو صناعة . وهذا الأمر ليس حكرًا على مصنّف دون الآخر، وإنما هو أمر شائع في مدوّنته كلها . على أنّه قد استوقفني ما جاء في صدر كتابه " التذييل والتكميل " ؛ فقد أورد عددًا من حدود النّحو للنّحاة السّابقين عليه . وهي حدود تنبئ في مجملها ـــ تصريحًا أو تلميحًا ـــ عن أنّ النّحو صناعة علميّة . وقد ظهر من إيراده لها من غير تعقيب، أنّه يوافق أصحابها على ما جاء فيها .

يقول أبو حيّان:" النّاظر في علم من العلوم لا بدّ له أوّلًا من معرفته على سبيل الإجمال، ثمّ بعد ذلك يتعرّف ما احتوى عليه ذلك الفنّ على سبيل التّفصيل. وقد كثر ما صنّف النّاس من الكتب في هذا العلم، وما تعرّض أحد منهم لحدّه إلّا القليل، قال صاحب المستوفي : " النّحو صناعة علميّة ... ". وقال صاحب البسيط : " النّحو هو علم بالتّغييرات ... " . وقال ابن هشام : " النّحو علم بأقيسة تغيُّر ذوات الكلم ... " . وقال صاحب المباحث :" النّحو علم يبحث فيه عن أحوال الكلم العربيّة ... ".

[٢] انظر : المرجع السابق، ص (٢٠) .

وقال صاحب المقرّب : " النّحو علم مستخرج ... ". وقال صاحب البديع :" النّحو معرفة أوضاع كلام العرب ... "[١].

على أنّ التّعريف الأخير المنسوب إلى صاحب البديع، جاء مشتملًا على لفظة " المعرفة " وليس" العلم " . وهو ما يعني ـ في رأيي ـ أنّ أبا حيّان يخلط بين مفهومي العلم والمعرفة ؛ دليلي في هذا أمران :

أحدهما : أنّه أطلق مصطلح العلم على كلٍّ من النّحو ومتن اللّغة وفروع البلاغة المختلفة ؛ يقول ـ في العلوم الّتي يحتاج إليها المفسِّر ـــ : " الوجه الأوّل : علم اللّغة اسمًا وفعلًا وحرفًا . الحروف لقلّتها تكلّم على معانيها النُّحاة فيؤخذ ذلك من كتبهم، وأمّا الأسماء والأفعال فيؤخذ ذلك من كتب اللّغة، وأكثر الموضوعات في علم اللّغة كتاب ابن سيده ... الوجه الثاني : معرفة الأحكام الّتي للكلم العربيّة من جهة إفرادها ومن جهة تركيبها، ويؤخذ ذلك من علم النّحو ... الوجه الثّالث : كون اللّفظ أو التّركيب أحسن وأفصح، ويؤخذ ذلك من علم البيان والبديع ... "[٢].

والآخر : أنّ السّيوطيّ نقل الحدود الّتي أوردها أبو حيّان في الاقتراح ما عدا الحدّ الأخير. ولو كان هذا الحدّ يُضفي سمة العلميّة أو الصّناعة على النّحو لأثبته . ولذا يقول : " وبهذا يُعلم أنّ المرادَ بالعلم المصدّر به حدودُ العلوم : الصّناعة "[٣].

معنى هذا أنّ أبا حيّان لم يتضّح لديه الحدّ الفاصل بين العلم والمعرفة، على النّحو الذي عرض له الدّكتور تمّام حسّان . بيد أنّ هذا لا يعني خلوّ

---

[١] التذييل والتكميل، (١٣، ١٤) . وقد ذكرنا هذه الحدود سابقًا، إلا أنّنا مضطرّون إلى إعادة ذكرها هنا؛ نظرًا لأهمية إبراز بعض العبارات في جلاء ما نحن بصدده .

[٢] البحر المحيط، (١/ ١٠٥ ـــ ١٠٧) .

[٣] الاقتراح في علم أصول النحو ، للسيوطي، قرأه وعلق عليه : د/ محمود سليمان ياقوت، (٢٤) .

النّحو من خصائص الصّنعة العلميّة عنده ؛ فالرّجل يلحّ كثيراً على علميّة النّحو في أكثر من موضع في مدوّنته، كما أنّ استعماله مصطلحي العلم والمعرفة بمعنى الصّناعة العلميّة لا يقلّل مطلقًا من درجة علميّة النّحو، وإنّما يرفع من درجة علميّة البلاغة ومتن اللّغة . ويمكن النّظر للبلاغة ومتن اللّغة على أنّهما علمان ؛ من منطلق أنّهما علمان تفسيريّان في مقابل النّحو الّذي هو علم معياريّ[٤].

وأرى أنّ هذه المعياريّة الّتي يتمتّع بها النّحو دون علمي اللّغة والبلاغة، هي الّتي جعلت أبا حيّان يخصّه بالبحث والدّراسة . ليس فقط لأنّه العلم الّذي برع فيه واشتُهر به، ولكن لأنّه العلم الأقرب إلى الصّناعة العلميّة، والمؤسِّس لعلم البلاغة، والمعنيّ بالتأليف بين المفردات (الاسم والفعل والحرف)، الّتي هي مادّة علم اللّغة .

علم النّحو ـــ إذن ـــ يعدّ واسطة العقد بين علوم اللّسان . بيد أنّ هذه العلاقة لانجد لها تنظيراً وممارسة إلّا في تفسير "البحر المحيط" ؛ وذلك لأنّ الجمع بين هذه العلوم الثّلاثة لا يكون إلّا في رحاب النّصّ . وقد فرّق أبو حيّان بين علمٍ يسعى إلى فهم النّصّ القرآنيّ، وعلمٍ يسعى إلى فهم غوامضه . وهذه التّفرقة جعلت النّحو هو العلم المنوط به تحقيق الغاية الأولى، في حين جعلت البلاغة هي العلم المنوط به تحقيق الغاية الثّانية .

(٤ـ٢) غاية النّحو بين فهم النّصّ وفهم غوامض النّصّ :

مرّ بنا ربط أبي حيّان بين النّحو وفهم النّصّ القرآنيّ . وقد ذكرنا أنّ غاية النّحو عنده تكمن في فهم النّصّ القرآنيّ . وهنا نتطرّق إلى ذكر غاية أخرى، تشكّل مع سابقتها فهمًا أعمق لإشكاليّة التّوصيف النّحويّ عنده . هذه الغاية تكمن في فهم غوامض النّصّ القرآنيّ . والفرقُ بين فهم النّصّ وفهم غوامضه، هي أشبه بالفرق بين المعنى والمغزى . فالأوّل قانعٌ

[٤] انظر : اللسان والإنسان، ص (١٣) .

بالمعنى الظّاهر أو الثّابت أو الوضعيّ، والآخر متجاوزٌ هذا المعنى إلى المعنى السّياقيّ أو التّداوليّ . وبعبارة أخرى المعنى معادلٌ للمفهوم أو الفكرة العامّة، والمغزى معادلٌ للمضمون الدّلاليّ الّذي يتفرّد به التّركيب عن نظائره بأثر الظّروف اللّغويّة وغير اللّغويّة المحيطة به[1].

والفرق بين المعنى والمغزى لا يدرك عند عبد القاهر إلّا في ضوء النّظم ؛ يقول : " لا يكون لإحدى العبارتين مزيّة على الأخرى، حتّى يكون لها في المعنى تأثير لا يكون لصاحبتها . فإنْ قلت : فإذا أفادت هذه ما لا تفيده تلك، فليستا عبارتين عن معنى واحد، بل هما عبارتان عن معنيين اثنين . قيل لك : إنّ قولنا " المعنى " في مثل هذا، يراد به الغرض، والّذي أراد المتكلّم أنْ يثبته أو ينفيه، نحو أنْ تقصد تشبيه الرّجل بالأسد فتقول : " زيد كالأسد "، ثمّ تريد هذا المعنى بعينه فتقول : " كأن زيدًا كالأسد " فتفيد تشبيهه أيضًا بالأسد، إلّا أنك تزيد في معنى تشبيهه به زيادة لم تكن في الأوّل، وهي أنْ تجعله من فرط شجاعته وقوّة قلبه، وأنّه لا يروعه شيء، بحيث لا يتميّز عن الأسد، ولا يقصّر عنه، حتى يتوهّم أنّه أسد في صورة آدميّ .

وإذا كان هذا كذلك، فانظر هل كانت هذه الزّيادة وهذا الفرق إلّا بما توخّي في نظم اللّفظ وترتيبه، حيث قدّم " الكاف " إلى صدر الكلام وركّبت مع " أن " ؟ وإذا لم يكن إلى الشكّ سبيل أنّ ذلك كان بالنّظم، فاجعله العبرة في الكلام كلّه، ورُضْ نفسك على تفهّم ذلك وتتبّعه، واجعل فيها أنّك تزاول منه أمرًا عظيمًا لا يُقادَرُ قدْرُه، وتدخل في بحر عميق لا يُدرك قعْرُه "[2].

على أنّ النّظم عند عبد القاهر لا يبدو واحدًا ؛ إنّه يرد على مستويين؛ أحدهما : نظم نمطيّ مجرّد تستقيم به التّراكيب استقامة نحويّة، تتأدّى

---

[1] انظر : البدائل الأسلوبية (دراسة في تراكيب نحوية في النص القرآني)، د/عبد المنعم عبد الحليم، ص (١٧) .

[2] دلائل الإعجاز، ص (٢٥٨) .

بها المقاصد والأغراض . وهذا النّوع ضروريٌّ في الكلام ؛ إذ به تكون صحّته وبدونه يقع الخلل والفساد . والآخر : نظم فنّيٌّ تسمو دلالته عن الدّلالة المباشرة إلى مستوى المزيّة والفضيلة . وهو مستوى ينضاف إلى مستوى الصّحّة النّحويّة[٣].

وقد ورد مصطلح النّظم في التّعريف الّذي نقله أبو حيّان عن صاحب المستوفى ؛ جاء فيه : " النّحو صناعة علميّة ينظر بها صاحبها في ألفاظ العرب من جهة ما يتألّف بحسب استعمالهم ليعرف النّسبة بين صيغة النّظم وصورة المعنى، فيتوصّل بإحداهما إلى الأخرى "[٤]. وهو تعريف لا يخرج النّظم فيه عن مستواه المجرّد .

والفرق بين المفهوم الأوّل والمفهوم الثّاني، هو فرق بين مستوى الصّحّة ومستوى الإحسان . ويختصّ بمستوى الصّحّة علم اللّسان، في حين يستقر المستوى الثّاني في رتبة الإحسان . والوصول إلى رتبة الإحسان لا يكون إلّا من خلال مرقاة علم اللّسان .

وهذا المعنى يتجلّى عند أبي حيّان في قوله : " اعلم أنّه لا يرتقي من علم التّفسير ذروته، ولا يمتطي منه صهوته، إلّا من كان متبحّرًا في علم اللّسان، مترقّيًا منه إلى رتبة الإحسان، قد جبل طبعه على إنشاء النّثر والنّظم دون اكتساب، وإبداء ما اخترعته فكرته السّليمة في أبدع صورة وأجمل جلباب، واستفرغ في ذلك زمانه النّفيس، وهجر الولد والأهل والنّفيس ... وأمّا من اقتصر على غير هذا من العلوم، أو قصّر في إنشاء المنثور والمنظوم، فإنّه بمعزل عن فهم غوامض الكتاب، وعن إدراك لطائف ما تضمّنه من العجب العجاب، وحظّه من علم التّفسير إنما هو نقل أسطار، وتكرار محفوظ على مرّ الأعصار، ولتباين أهل الإسلام في إدراك فصاحة الكلام، وما به تكون الزجاجة في النّظام، اختلفوا فيما به إعجاز القرآن،

---

[٣] انظر : المرجع السابق، ص (٨٤)، و المعنى في البلاغة العربية، د/ حسن طبل، ص (٨٨)، والبلاغة والأسلوبية، د/ محمد عبد المطلب، ص (٥٥) .

[٤] التذييل والتكميل، (١٣/١) .

فمن توغّل في أساليب الفصاحة وأفانينها، وتوقّل في معارف الآداب وقوانينها، أدرك بالوجدان أنّ القرآن أتى في غاية من الفصاحة لا يوصل إليها، ونهاية من البلاغة لا يمكن أنْ يحام عليها، فمعارضته عنده غير ممكنة للبشر، ،لا داخلة تحت القدر، ومن لم يدرك هذا المدرك، ولا سلك هذا المسلك، رأى أنّه من نمط كلام العرب ... "[1].

وعلى هذا، فالمقصود بعلم اللِّسان عنده هو علم النّحو في مستواه المجرّد، في حين أنّ المقصود برتبة الإحسان هو علم النّحو في مستواه التّفسيريّ . ومن ثمّ، يكون علم اللِّسان (النّحو المجرّد) سُلّمًا إلى رتبة الإحسان (النّحو التّفسيريّ إضافة إلى النّحو المجرّد) . والوقوف عند علم اللِّسان يساعد على فهم النّصِّ القرآنيّ، في حين أنّ الوصول إلى رتبة الإحسان كفيلٌ بفهم غوامض هذا النّصِّ (الإعجاز) . ومن هنا تكون المسافة بين فهم القرآن وفهم غوامضه هي ذاتها المسافة بين علم اللِّسان ورتبة الإحسان .

ومعرفة إعجاز القرآن لا يكون إلّا من خلال علم البلاغة ؛ وذلك لأنّ البلاغيين جعلوا لعلم البلاغة فائدتين[2]:

أ ـ الوقوف على أسرار البلاغة في منثور الكلام ومنظومه .

ب ـــ معرفة وجه إعجاز القرآن من جهة ما خصّه الله به من حسن التّأليف، وبراعة التّركيب، وما اشتمل عليه من عذوبة وجزالة، وسهولة وسلاسة .

إنّ الجمع بين علم اللِّسان ورتبة الإحسان ـــ عند أبي حيّان ـــ يعطي أهليّة للنّظر في تفسير القرآن، وبدون هذا الجمع لا تتحقّق له هذه الأهليّة، حتى وإنْ كان هذا النّحويّ أنحى من سيبويه . على الرّغم من أنّه

[1] البحر المحيط ، (١٠٩/١) .

[2] انظر : الأصول، ص (٢٧٤) .

في مصنّفاته كلّها يجعل النّحو مرقاةً إلى فهم الكتاب، إلّا في تفسيره "البحر المحيط"، فإنّه يجعل سيبويه هو تلك المرقاة[٣].

أبو حيّان ـ إذن ـ يعمل على تجزئة النّصِّ القرآنيِّ . بيد أنّها تجزئة لا يُراد بها تحنيط هذه البقايا المجزّأة، وإنّما

هي تجزئة خيالية تدركها العين والفكر وحدهما، ولكنها تجلِّي معرفتنا بالنّصِّ، دون أنْ تُحدث في كيانه خدشًا واحدًا[١].

هذا يعني أنّ أبا حيّان لم يخلط بين علم النّحو وعلم البلاغة، وإنّما جعل العلمين متكاملين، يأتي فيهما علم النّحو أوّلًا ثمّ يأتي علم البلاغة تتمّةً له . كما لم يجعل النّحو التّفسيريّ ناسخًا للنحو المجرّد . ونجد أنّ هاتين الفكرتين حاضرتان في الدرس اللغوي الحديث ؛ فقد ذهب الدّكتور صابر الحباشة إلى أنّ النّحو هو الضّابط للسّلامة والمقبوليّة، في حين أنّ البلاغة هي الضّابط للجماليّة . كما أنّ ثمّة تكاملًا بينهما، بيد أنّ البلاغة لا تبدأ عملها حتى يستوفي النّحو مهمّته ؛ وذلك لأنّه من غير المنطقيِّ النّظر في بلاغة جملة لاحنة (لا نحوية)[٢].

كما نجد فان دايك يتراوح في موقفه من النّحو بين النّحو " الضّيِّق " المنحصر فقط في علم التّراكيب، وبين النّحو بمعناه الواسع الّذي يندرج فيه : المكوِّن التّداوليّ، والمرجع الدلاليّ، وشروط التّأويل النّاتجة عن معرفة العالم الدّلاليّة، وكذلك علم السِّيمانطيقي الكلّي . بيد أنّه يقرِّر أنْ يختار النّحو بمعناه الواسع ؛ معلِّلًا اختياره هذا بأنّه يمكِّنه من

---

[٣] انظر : البحر المحيط، (١ / ١٠٠، ١٠١، ١١١) .

[١] انظر : النحو والدلالة (مدخل لدراسة المعنى النحوي ـــــ الدلالي)، د/ محمد حماسة عبد اللطيف، ص (٢٠٩) .

[٢] انظر : مغامرة المعنى من النحو إلى التداولية، د/ صابر الحباشة، ص (٤٠) .

تعليل عدد كبير من ضروب التّعميم (في كلٍّ من الجمل والخطاب) في حدود الإطار النّحويّ نفسه[٣].

واختيار فان دايك للنّحو بمفهومه الواسع دون النّحو الضّيّق، ينسف ـــ في رأيي ـــ فكرة التّكامل بين هذين النّحوين ؛ لأنّ فكرة التّكامل تقوم في أساسها على إدراك أهمّيّة كلا النّحوين بالنّسبة للآخر، ويبدو أنّ فان دايك لا يعير أهمّيّة للنّحو الضّيّق ؛ بدليل اختياره النّحو الواسع دونه .

وقد كان نحاة العربيّة على وعيٍ بأهميّة كلا النّحوين بالنّسبة للآخر، إلّا أنّ هذا لم يمنعهم من الفصل بينهما. وقد مرّ بنا كيف أنّ أبا حيّان فصل بينهما لغاية علميّة وتعليميّة . وهذا الفصل الذي نهجه لم يكن فيه بدْعًا من النّحاة ؛ فعبد القاهر الجرجانيّ نفسه الّذي رأى بعضهم خلطه بين مسائل علم النّحو ومسائل علم المعاني، نجده يفصل بين النّحو والبلاغة بصفة عامّة في كتبه الأخرى، بل إنّنا نجده يهمّش من مساحة علم البلاغة في تفسيره " درْج الدُّرر " . وهو ما جعل محقّقَيْه يقولان : " ومن حيث الجوانب البلاغية في تفسيره فهي إشارات لطيفة ومختصرة وقليلة جدًا، وهو ما نستغربه جدًا أنْ يغفله المؤلّف في هذا الكتاب، فهو أحقٌّ من غيره في أنْ يستعرض به المؤلِّف ـــ سيّما المختص بالبلاغة ـــ الجوانب البلاغيّة بشكل موسّع ... وفي الجملة، فإنّ القصور والتّقصير في طرق الجوانب البلاغيّة حاصلٌ من المؤلِّف، وإنّه لم يعطِ الكتاب حقّه من اللّطائف البلاغيّة "[٤].

(٤ـ٣) النّحو وشرط التّراكميّة العلميّة:

كانت أولى خصائص التّفكير العلميّ الّتي عرضنا لها سابقًا هي التّراكميّة . وهي تنصّ على أنّ العلم لون

(3) Teun A.Van Dijk : " Text and Context " , P.229 .

[٤] درْج الدُّرر في تفسير الآي والسور، لعبد القاهر الجرجاني، تحقيق : وليد بن أحمد بن صالح الحسين و إياد عبد اللطيف القيسي، (٦٠/١) .

من ألوان النّشاط الإنسانيّ، لا يمكن أنْ يثبت على حال واحدة لا يفارقها، بل إنّ المعرفة العلميّة في تزايد مستمرٍ ونموٍ متّصل، وهي لذلك توصف بأنّها نسبيّة ؛ لأنّها لا تكفّ عن التّطوّر والتّغيّر، فإذا بدا العلم في يوم ما ثابتًا، أو أنّه قد وصل إلى رأي نهائيٍ فإنّه سرعان ما يصيبه التّغيير والتّبديل لما يطرأ عليه من ظواهر تبعثه على تغيير آرائه السّابقة[١].

وقد رأى الباحثون أنّ التّراكميّة العلميّة تسير في اتّجاهين متلازمين ؛ هما[٢]:

الاتّجاه الأفقيّ : وفيه يبحث العلم في ظواهر ظواهر جديدة لم يكن قد بحثها من قبل، ولم تدخل في نطاق دراسته .

والاتجاه العموديّ : وفيه يتعمّق العلم في بحث الظّواهر الّتي تقع في نطاق دراسته، ويقدّم تحليلًا أكثر اتّساعًا وشمولًا من ذي قبل، حتى تبدو الظاهرة المدروسة إبّان نشأتها شيئًا ضئيلًا، إذا ما قورنت بصورتها حين يقطع العلم زمنًا طويلًا في بحثها ودراستها والتّعمّق في تحليلها .

وقراءة النّحو العربيّ على ضوء هذه الخصيصة يفضي إلى نتيجة واحدة ؛ وهي أنّ التّراكميّة باتجاهيها الأفقيّ والعموديّ قد تمثّلت في هذا النّحو، واتّضحت فيه اتّضاحًا لا يدع مجالًا لشكّ أو تردّد . وبالنّسبة للاتّجاه الأفقيّ يمكن أنْ نرصده من خلال النّظر في المباحث الّتي انطوى عليها النّحو في نشأته، ومقارنتها بما انتهت إليه الدّراسة النّحويّة في كتاب سيبويه . وتفصح هذه المقارنة عن ازدياد الظّواهر النّحويّة المدروسة على مرّ السّنين. أمّا بالنّسبة للاتّجاه العموديّ، فإنّه يمكن تلمّس آثاره ـــ مثلًا ـــ عند الموازنة الأوّليّة بين دراسة تقسيم الكلم في العربيّة إلى اسم وفعل وحرف عند سيبويه، ودراسة هذا الموضوع عند رضيّ الدّين

[١] انظر : التفكير العلمي، ص (١٩) .

[٢] انظر : المرجع السابق، ص (١٩ ـــــ ٢٢) .

الإستراباذيّ في شرحه للكافية، تكشف إلى أيّ حدٍّ بلغ التّعمّق في تحليل الظّواهر النّحويّة المدروسة .

فلم تزد دراسة سيبويه لهذا الموضوع عن حقيقة أنّ الكلم في العربيّة تقسّم على ثلاثة أقسام : اسم، وفعل، وحرف جاء لمعنى ليس باسم ولا فعل، وبين أقسام الفعل في العربيّة، مشيراً إلى المصادر، والتّمثيل لها[٣]. في حين أنّ رضيّ الدّين الإستراباذيّ قد بدأ دراسة هذا الموضوع بذكر تعريف للكلمة، واشتقاقها، وبيان على ماذا تطلق في اللّغة، وبيان الفرق بين الكلمة والكلام، ثم بيان أقسامها، وتقديم الأدلة الّتي تثبت انحصار أقسامها في : الأسماء والأفعال والحروف[٤]. وهذا كلّه تعمّق في دراسة الظّاهرة اللّغويّة لم يكن معهوداً في عصر سيبويه مثلًا . وهو نموذج كاشف عن خصيصة التّراكم العلميّ في النّحو العربيّ باتّجاهها العموديّ[٥].

والسّؤال : هل توقّف النّحو العربيّ بعد سيبويه عند الاتّجاه الأفقيّ من خصيصة التّراكميّة العلميّة أم لا ؟ وإذا كانت الإجابة بالنّفي، فإلى أيّ مدى كان نحو أبي حيّان معبّراً عن ذلك؟

يرى الدّكتور تمّام حسّان أنّ ثمّة ظاهرة مشئومة كانت حاضرة في تراثنا العربيّ ؛ وهي ظاهرة التّقليد والنّقل عن

السّابقين . وقد شاعت هذه الظّاهرة واستمرّت، حتّى لتبدو نشأة كلّ فرع من فروع الدّراسات العربيّة كأنّها طفرة لا تمهيد لها ولا استمرار لنموّها وتطوّرها ؛ فالنّحو بدأ عملاقًا بكتاب سيبويه، وتوقّف عند ظهوره عن النّموّ، والعَروض من ابتكار الخليل ولم يضف أحد إليه شيئًا، وهكذا . ثم

---

[٣] انظر : الكتاب، (١ / ١٢) .

[٤] انظر : شرح الرضي على كافية ابن الحاجب، تحقيق : د/ عبد العال سالم مكرم، (١/ ٥ ـــ ١٦) .

[٥] انظر : القاعدة اللغوية والقراءات القرآنية، ص (٢٤٦، ٢٤٨، ٢٤٩) .

جاء المتأخِّرون فكان دورهم الاستيعاب والنّقل دون الإضافة . فلقد قرأوا وناقشوا وعلّقوا وشرحوا، أمّا محاولة الخلق والابتكار والإبداع، فلا نكاد نظفر من ذلك إلّا بالقليل النادر[١].

ومعنى هذا أنّ الاتّجاهين الأفقيّ والعموديّ في التّراكميّة العلميّة، قد استمرا بعد سيبويه دون توقّف . بيد أنّهما لم ينجم عنهما إضافة أو اختراع أو ابتكار أو إبداع إلّا في النّادر، كما يرى الدّكتور تمّام حسّان . ولعلّ هذا ما جعل الدّكتور طه عبد الرّحمن يفرِّق بين مفهوم التّراكم ومفهوم التّكوثُر العقليّ ؛ " فالتّكوثر لا يحفظ ما تقدّم ولا يضيف إليه ما استجدّ، كما يُوجِب ذلك التّراكم، وإنّما يغيِّر ما تقدّم بمقتضى مبدأ المراجعة، ويفتح فيه شعبًا لا تتراءى لها نهاية بمقتضى مبدأ التّشعيب "[٢].

ومقتضى مبدأ المراجعة " أنّ الأصل في فعل التّكوثر أنْ يؤثِّر في الشّيء، إيجابًا أو سلبًا، زيادة أو نقصانًا، ولا يصار إلى ادِّعاء بقاء هذا الشّيء على حاله إلّا بدليل ... فالمتكوثر المعرفيّ يتّسع لحقائق تزيد عن الحقائق السّابقة لا بواسطة إضافات مطّردة اطِّرادًا، وإنّما بواسطة تغييرات قد تطّرد أو لا تطّرد، تغييرات تنتقل آثارها إلى مجموع عناصره ... وأمّا مبدأ التّشعيب، فمقتضاه أنّ الأصل في التّكوثر أنْ تتّخذ فيه الزِّيادة صورة شعب متعدِّدة يفيض بعضها من بعض، لا صورة الشُّعبة الواحدة "[٣].

وإذا أنزلنا هذا التّفريق على مفهوم النّحو عند أبي حيّان، فإنّنا سنجد أنّه قد صدّر كتابه "التّذييل والتّكميل" ــ مثلًا ــ بما يوحي اشتماله على مظاهر التّراكميّة والتّكوثر جميعًا ؛ يقول : " دونك ــ أيُّها السّائل ــ من هذا الشّرح كتابًا غريب المثال، قريب المنال، هبّت عليه النّفحات اليمانيّة، واجتمعت فيه المعاني الثّمانية، وهي الّتي يصنِّف فيها العلماء، ويتطلّبها من التّأليف الفهماء : معدوم قد اخترع، ومفترق قد جمع،

---

[١] انظر : الأصول، ص (٣٢٣، ٣٢٤) .

[٢] اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص (٢٦) .

[٣] المرجع السابق، الصفحة نفسها .

وناقص قد كمِّل، ومجمل قد فصّل، ومسهب قد هذّب، ومخلّط قد رتّب، ومبهم قد عيِّن، وخطأ قد بيِّن "[٤].

والظّاهر من كلامه أنّ العلم المعدوم الّذي اخترع يقابل التّكوثر العقليّ، وأنّ بقيّة العلوم تقابل التّراكم ؛ لأنّها تقوم على الصّون والإضافة وليس المراجعة والتّشعيب، كما هو الحال في التّكوثر . بيد أنّنا إذا أنعمنا النّظر فيما ساقه في كتابه، فإنّنا لا نجد أثرًا لأيِ اختراع أو ابتكار، وإنّما نجد إضافة لا غير، وهذه الإضافة تتّخذ مسارات عدّة : تجميع المفترق، وتكميل المنقوص، وتفصيل المجمل، وتهذيب المسهب، وترتيب المخلّط، وتبيين الخطأ .

وهذه المسارات التّراكميّة لا تشكّل مراجعة ولا تمثّل تشعيبًا، بدليل أنّه أبقى على بعض تعريفات للنّحو نقلها عن نحاة سابقين . وهي تعريفات تدور في مجملها حول النّحو المجرّد . ومن ثمّة، لا تعدّ هذه المسارات انعطافًا في مسار الدّرس النّحْويِّ، بقدر ما هي إضافات تصون ما سبق وتبني عليه . والأمر نفسه ينسحب على جميع كتبه سوى "البحر المحيط" .

وإذا انتقلنا إلى تفسير "البحر المحيط"، فإنّنا سنجد انعطافًا في الدّرس النّحويِّ عند أبي حيّان نفسه . فلم يعد النّحو عنده نحوًا مجرّدًا، وإنّما صار نحوًا جديدًا، يجمع في بوتقته علوم المبنى الّتي يمثّلها علم النّحو المجرّد، وعلوم المعنى الّتي يمثّلها علم البلاغة . على أنّ هذا الجمع لا ينفي الفصل بين هذين النّوعين من العلوم، كما لا ينفي أنّ النّحو الجديد أو التّفسيريّ يمثّل مراجعة وتشعيبًا في النّحو القديم أو المجرّد . بمعنى أنّ أبا حيان لم يبنِ نحوه الجديد على نحوه القديم وإنّما فصل بينهما، ليس من منطلق أنّ الجديد يجبّ القديم وإنّما من منطلق أنّ الجديد يعيد النّظر في سمات القديم، فيعدّل فيها على النّحو الّذي يؤهّلها للتّعامل مع

[٤] التذييل والتكميل، (١/١١) .

النّصِّ وليس الجملة . وعلى الرّغم من هذا التّعديل، يظلّ نحوه القديم صالحًا للتّعامل مع الجملة، قائمًا على الشّاهد والمثال، بما يحقّق غاية تعليميّة .

هذا يعني أنّه في "البحر المحيط" ينظِّر للنّحو من مبدأي المراجعة والتّشعيب . والمراجعة تكمن في التّعديل الّذي أجراه على مكونات النّحو المجرّد ؛ بوصفه نحوًا قاصرًا عن التّعامل مع النّصِّ القرآنيِّ، وهو إدخال علوم البلاغة في مفاصل هذه المكوّنات، بما يحقّق غاية علميّة وهي فهم غوامض هذا النّصِّ. ولذا نجده يقول ـــ في العلوم الّتي يحتاج إليها المفسِّر ـــ : " وأمّا من اقتصر على غير هذا من العلوم، أو قصّر في إنشاء المنثور والمنظوم، فإنّه بمعزل عن فهم غوامض الكتاب، وحظّه من علم التّفسير إنّما هو نقل أسطار، وتكرار على مرِّ الأعصار "[1]. ويقول أيضًا : " إنّ علم التّفسير ليس متوقّفًا على علم النّحو فقط كما يظنّه بعض النّاس، بل أكثر أئمّة العربيّة هم بمعزل عن التّصرُّف في الفصاحة والتّفنّن في البلاغة، ولذا قلّت تصانيفهم في علم التّفسير، وقلّ أنْ ترى نحويًا بارعًا في النّظم والنّثر، كما قلّ أنْ ترى بارعًا في الفصاحة يتوغّل في علم النّحو"[2]. ولا شكّ أنّ علم النّحو الّذي يظنّ بعض النّاس أنّ علم التّفسير متوقّفًا عليه، ليس هو النّحو المجرّد وإنّما هو النّحو التّفسيريّ .

كما أنّ مبدأ التّشعيب يكمن في أنّ تعديل مكوّنات النّحو المجرّد، يفتح الباب أمام التّفاعل بين كافّة المكوّنات القديمة والجديدة، على النّحو الّذي لا يعكس زيادة وإضافة على هذا المحتوى بقدر ما يعكس تكاملًا وتلاؤمًا وانسجامًا بينها ؛ من أجل محاصرة المعنى المراد من الخطاب . ولذا نجد أبا حيّان يسخِّر كلّ إمكانيّات النّحو الجديد في سبيل فهم الآية والوقوف

---

[1] البحر المحيط، (١/ ١٠٩) .

[2] المصدر السابق، (١/ ١١١) .

على حقيقة المراد منها . بل إنّه يجعل من العلوم غير الدّاخلة في إطار هذا النّحو عاملًا مساعدًا على تحقيق هذه الغاية[٣].

ولذا يقول الدّكتور الهادي الجطلاوي : " نظرًا إلى اختصاص أبي حيّان بالنّحو وإلى غزارة المادّة النّحويّة في تفسيره تحليلًا للتّركيب وتبسُّطًا في مسائل الخلاف، فقد وصل العديد من النقّاد " البحر المحيط " بعلم إعراب القرآن وصلًا قد يفهم منه أنّ " البحر المحيط " كتاب في النّحو أو في إعراب القرآن. والواقع أنّ الكتاب في تفسير القرآن من حيث الاهتمام بدلالة الخطاب والاجتهاد في إدراك المقاصد، فأبو حيّان صاحب مذهب في التّفسير يتحمّس له، وهو صاحب منهج في معالجة النّصّ يستدعي منه ككلِّ مفسِّر أنْ يكون مطّلعًا على جملة من العلوم الدّينيّة لا يستقيم التّفسير بدونها : علم الحديث وعلم أصول الفقه وعلم الكلام وعلم القراءات . إلّا أنّه والحقّ يقال يؤخّر هذه العلوم إلى درجات رابعة وخامسة وسادسة وسابعة، ويقدّم عليها بالدّرجة الأولى العلوم اللّغويّة معجمًا فنحوًا فبلاغةً. ولا يمكن لقارئ " البحر المحيط " أنْ لا يتفطّن لملاحظة منهجيّة أساسيّة في تفسير أبي حيّان كثيرة التردُّد يؤكّد فيها أنّ هذه العلوم إنْ هي إلّا أدوات مساعدة على فهم النّصّ، وأنّها ليست علومًا مقصودة لذاتها، فكلّما شعر أنّ الكلام قد انزلق به بعيدًا عن معنى الآية، نحو تناول العلوم الفروع في ذاتها توسُّعًا واستطرادًا تماسك وأحال القارئ على ذلك العلم، باعتبار أنّ علم التّفسير غير تلك العلوم الوسائل . وإنْ كانت هذه الصّرامة المنهجيّة متيقّظة في العلوم الدّينيّة أكثر منها في العلوم اللّغويّة، وفي النّحو أكثر منها في الاستطرادات اللّغويّة . وقد يستنتج الدّارس من هذه الملاحظة وعيًا من المفسِّر بأهدافه والتزامًا في المنهج بحدوده، في زمنٍ ورث من التّفاسير في عددها واختلاف مذاهبها وطرقها رصيدًا يصعب اختزاله وضبطه"[١].

---

[٣] انظر : المصدر السابق، (١/ ١٠١، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١٢١) .

[١] قضايا اللغة في كتب التفسير، ص (٦٩) .

إنّ تقديم أبي حيّان علومَ اللّسان على ما عداها في مقاربة النّصّ القرآنيّ، يعكس وعيًا منه بالمسافة التّراتبيّة الّتي يجب أنْ تكون بين اللّسانيّات والتّداوليّة بالتّعبير اللّغويّ الحديث ؛ جاء في القاموس الموسوعيّ للتّداوليّة : " ليست مهمّة التّداوليّة الأساسيّة سوى وصف تأويل القول تأويلًا تامًا بالانطلاق مما تنتجه اللّسانيّات ـــ في معناها الضّيّق (الصّوتميّة وعلم التّركيب وعلم الدّلالة) ـــ من تأويل جزئيّ للجملة . ويتمثّل جانب من هذه المهمّة في اختيار أحد التّأويلات، هذا إذا أنتج التّحليل اللّسانيّ أكثر من تأويل، في حين يكمن الجانب الثّاني من هذه المهمّة في أنْ تسند إلى مفردات إحاليّة مختلفة ... ورغم أنّ الآليّات المحقّقة لهما قد تكون جزئيًا متماثلة (مثل استدعاء السّياق والالتجاء إلى الآليات الاستدلاليّة)، فإنّ هذين الجانبين ليسا متكافئين، وينبغي أنْ يعالجا بطريقة مختلفة .

إذن فالفكرة نفسها المتمثّلة في أنّ عمليتي إزالة اللّبس في الأقوال وإسناد المراجع، تعودان إلى التّداوليّة، هي ما يدرج العمليّتين في مرحلة تعدّ متأخّرة في العمليّة التّأويليّة، أي بعد التّأويل اللّسانيّ الصّرف، و توجّه هذه الفكرة إلى رؤية تراتبيّة نسبيًا لتأويل الأقوال . ويجب أنْ يفهم من صفة تراتبيّة هنا معنيان : فهي تشير بدءًا إلى وجود فاصل واضح، وإنْ لم يكن جذريًا تمامًا، بين آليّات التّأويل اللّسانيّ وآليّات التّأويل التّداوليّ، وهي ثانيًا تتضمّن في ثناياها تصوّرًا توقيتيًا للعمليّة التّأويليّة الّتي تصبح منحصرة حينئذٍ في متتالية من المراحل "[٢].

ولعلّ آليّات التّأويل اللّسانيّ تبدو بوضوح عند أبي حيّان من خلاله كتابه " ارتشاف الضرب "، الّذي يلي تفسير "البحر المحيط" في تأليفه ؛ إذ بيّن فيه ما ينتجه حقل اللّسانيّات من مستويات تحليليّة صوتيّة وصرفيّة وتركيبيّة . وهي مستويات تخضع عنده لصفة التّراتبيّة، على النّحو

[٢] القاموس الموسوعي للتداولية، ص (١٣٣) .

المبيّن في الدّرس اللّغويِّ الحديث . كما أنّ آليّات التّأويل التّداوليِّ تبدو بوضوح في "البحر المحيط"، إلى جانب آليّات التّأويل اللِّسانيِّ .

ولعّل هذا ما يؤكّد أنّ النّحو المجرّد عنده ليس بالضّرورة نحواً تعليميًا، وإنّما هو نحو أشبه ما يكون بنحو النّصِّ

القائم على أساس النّظام اللّغويِّ، في مقابل نحو النّصِّ القائم على أساسٍ تداوليٍّ[1]. ولـــذا فإنّ النّحو الأوّل عنده يَمْتَحُ ــ غالبًا ــ من فكر سيبويه وابن عصفور وابن مالك، في حين أنّ النّحو الثّاني يمتح من فكر هؤلاء، إلى جانب فكر حازم القرطـاجنّي وغيـره مـن البلاغيـين، وفكـر علمـاء القراءات والحديث وأصول الفقه وأسباب النّزول والنّاسخ والمنسوخ ...إلخ

وعلى ذلك، فإنّ مدوّنة أبي حيّان يتبدّى فيها جانبا التّراكميّة العلميّة : الأفقيُّ، والعموديُّ . بيد أنّ الوقوف على جانبي التّكوثُّر العقليِّ فـي هـذه المدوّنة، لا يتحقّق إلا من خلال رصد انعطاف المسار النّحويِّ، الّذي يبـدأ من تحديد آليّات التّأويل اللِّسانيِّ وينتهي بتحديد آليّات التّأويل التّداوليِّ . وهو ما يجلّي جانبًا من إشكاليّة انفتاح التّوصيف النّحويِّ عنده .

* * *

[1] انظر : علم النص (تحريات في دلالة النص وتداوله)، أ/ فهيمة لحلوحي، ص (٢٢٤) .

الخاتمةُ وأهمُّ النّتائجِ

إذا كان من معاني الإشكاليّة أنّها منظومة من العَلاقات، الّتي تنسجها داخل فكر معيّن مشاكلُ عدّة مترابطة لا تتوافر إمكانيّة حلّها منفردة، ولا تقبل الحلّ ـ من النّاحية النّظريّة ـــ إلّا في إطار حلٍّ شامل يشملها جميعًا، وإذا كانت لا تتحدّد بما تمّ التّصريح به فقط، وإنّما بما تتضمّنه وتحتمله كذلك ـ فإنّ إشكاليّة انفتاح التّوصيف النّحويّ عند أبي حيّان الأندلسيّ، جاءت منطوية على عدد من العلاقات ؛ مثل: العلاقة بين ثلاثيّة : النّحو والدّلالة والتّداوليّة بصفة عامّة، والعلاقة بين النّحو والدّلالة من جهة، وبينهما وبين التّداوليّة من جهة أخرى بصفة خاصّة، والعلاقة التّراتبيّة بين اللّسانيّات المؤسّسة على النّظام اللّغويّ واللّسانيّات المؤسّسة على النّظريّة التّواصليّة . و تمثّل هذه العلاقات جزئيّاتٍ جمعها خيطٌ ناظم واحد ؛ هو غاية النّحو عند أبي حيّان . وقد ساعد على إيضاح هذا الخيط عددٌ من الأسئلة ؛ منها : ما الغاية التي توخّاها أبو حيّان من مدوّنته النّحويّة ؟ وهل اختلفت هذه الغاية بين المدوّنة النّظريّة والمدوّنة التّفسيريّة أم ظلت كما هي ؟ وإذا كانت قد اختلفت فما مدى هذا الاختلاف ؟ وكيف شكّل هذا الاختلاف مدخلًا إلى فَهْم التّوصيف النّحوي عنده ؟

وقد كانت نتيجة طرح هذه الأسئلة، التّوصّل إلى أنّ أبا حيّان قد فرّق بين نحوٍ مجرّد ونحوٍ تفسيريّ . ولم يكن هذا التّفريق مصرّحًا به عنده، وإنّما رصدناه من خلال استقرائنا لمدوّنته العريضة المترامية الأطراف، الّتي جمعت بين دفّتيها تجلّيات هذين النّحْوَيْن . على أنّ هذه الأسئلة وما شكّلته من علاقات، قد اعتورها ـــ كما هو واضح ـــ بعض المفاهيم المعروضة في اللّسانيّات الحديثة . وينبغي التّأكيد أنّ ذكر هذه المفاهيم ليس من باب التّأصيل لها، وإنّما من باب بيان الامتدادات المعرفيّة للمدوّنة العربيّة التّراثيّة، وتقديم جانب من الأفكار الرّائدة الّتي عرض لها علماء العربيّة القدامى، وإنْ لم تكن تحظى بالاحتفاء والاهتمام أحيانًا من لدن

بعض الدّارسين، احتفاءَهم واهتمامَهم بكلِّ وافد حديث من المفاهيم الغربيّة .

وعلى الرّغم من إيماني بأنّ البحث بكلِّ مباحثه يمثل نتائج توصّل إليها الباحث، فجاء مُنجَزًا في ثوبه هذا، فإنّي فيما يلي ساردٌ لأهم هذه النّتائج :

◄ أكّد البحث أنّ ثمّة اتجاهين في الدّراسات اللّغويّة عند العرب؛ أحدهما: الاتّجاه الشكليّ الّذي هيمنت عليه النّزعة المعياريّة في التّقعيد النّحويّ . وهو اتّجاه تعليميٌّ غالبًا، يرمي النّحويٌّ من خلاله إلى ضبط الصّحّة اللّغويّة للتّركيب دون الوقوف على ملابساته الخارجيّة، الّتي تُسهم في الكشف عن مراد المتكلّم . والاتّجاه الآخر : الاتّجاه التّواصليٌّ الّذي يدرس التّركيب اللّغويّ في ضوء استعماله . وهو اتّجاه علميٌّ، يرمي النّحويٌّ من خلاله إلى فهم أمثل للنّصّ موضوع الدّراسة ؛ من خلال جمعه بين علوم المبنى وعلوم المعنى. وقد شكّلت إضافة علوم البلاغة العربيّة إلى النّحو الشّكليّ الّذي يمثّله الاتّجاه السّابق، تخفيفًا من حدّة المعياريّة المسيطرة عليه. ومن ثمّة، انتقل النّحو معها من حيّز الجملة إلى رحاب النّصّ، ومن رحاب النّصّ إلى فضاء الخطاب. وقد تجلّى هذان الاتّجاهان معًا في مدوّنة أبي حيّان . بيد أنّ الاتّجاه الأوّل كان قاصرًا على المدوّنة النّظريّة، الّتي تمثّلها مصنّفاته سوى "البحر المحيط"، في حين أنّ الاتّجاه الثّاني كان قاصرًا على المدوّنة التّفسيريّة، الّتي يمثّلها تفسيره "البحر المحيط" .

◄ بيّن البحث أنّ ثمّة تكاملًا بين هذين الاتّجاهين؛ إذ إنّ الاتّجاه الأوّل يعدٌ مقدّمة ضروريّة للاتّجاه الثّاني، ولا يكون التّفريق بينهما إلّا من أجل مقتضيات التّحليل . ونظرًا لاكتفاء الاتّجاه الأوّل بعلوم المبنى، فقد أُطلق عليه في الدّرس اللّغويّ الحديث مصطلح " اللّسانيّات المضيّقة "، في مقابل " اللّسانيات الموسّعة " التي تطلق على الاتّجاه الثّاني ؛ لأنّها تجمع بين علوم المبنى وعلوم المعنى . وقد تحققت التّكامليّة عند أبي حيّان بين هذين الاتّجاهين عند مقاربته النّصّ القرآنيّ .

◄ توصّل البحث إلى أنّ غاية النّحو عند أبي حيّان تنحصر في غرضين اثنين ؛ هما : فهم النّصِّ القرآنيِّ، وفهم غوامضه . وقد ترتّب على هذين الغرضين انفتاح التّوصيف النّحويِّ عنده ؛ فقد وجدنا أنّه يفرِّق ـــ ضمنًا ـــ بين نوعين من النّحو؛ هما : النحو المجرّد الّذي يقتصر على علمي التّصريف والإعراب، والنّحو التّفسيريِّ الذي يجمع إلى هذين العلمين علمي البيان والبديع . والنّحو المجرّد يتناسب والغرض الأوّل، في حين أنّ النّحو الثّاني يتناسب والغرض الثّاني . ولذا وجدنا أبا حيّان في تفسيره، يشدّد على ضرورة أخذ المفسّر بالنّحو الثّاني، وإلّا كان حظّه من علم التّفسير ـــ على حدِّ قوله ـــ نقلَ أسطارٍ وتكرارَ محفوظٍ على مرِّ الأعصار.

◄ كَشَفَ البحث عن أنّ مدوّنة أبي حيّان ظهرت فيها خصائص التّفكير العلميِّ، وعلى رأسها خصيصة التّراكميّة بجانبيها الأفقيِّ والرّأسيِّ . بيد أنّ هذه الخصيصة تختلف عن مفهوم التّكوثر العقليِّ ؛ من حيث إنّها تتأسّس على مبدأي الصّون والإضافة، في حين أنّ التّكوثر يقوم على مبدأي المراجعة والتّشعيب . وقد ظهر أنّ التّكوثر العقليّ يتجلّى عند أبي حيّان في انعطاف المسار النّحويِّ، الذي يبدأ من آليّات التّأويل اللّسانيِّ في مصنّفاته النّظريّة، وينتهي عند آليّات التّأويل التّداوليِّ في تفسيره "البحر المحيط". وقد اتّخذ هذا الانعطاف شكل التّعديل في الآليّات الأولى ؛ على نحو يُوجِد تفاعلًا بينها وبين الآليّات الثانية .

◄ كَشَفَ البحث عن التزام أبي حيّان العلاقةَ التّراتبيّة بين مفهومي اللّسانيّات والتّداوليّة . فقد أفصحت مدوّنته عن أنّه قدّم علم الصّرف على علم الإعراب، وأطلق عليهما مصطلح "علم اللّسان"، ثم ثنّى بعلوم البلاغة، وأطلق عليها "رتبة الإحسان" . وجعل الأولى سُلّمًا إلى الثّانية، ثم جعل الجميع في خدمة فهم غوامض النّصِّ القرآنيِّ . والتزام هذه العلاقة التّراتبيّة بين اللّسانيّات والتّداوليّة هو عينُ ما ذهب إليه النّظر اللّغويّ الحديث .

ومع ذلك، تبقى مدوّنة أبي حيّان مفتوحة، وتظلّ قراءتنا ومشروعنا منفتحين حيالها على السؤال والبحث، والإفادة من الإنجازات المهمّة التي حقّقها النُّحاة والبلاغيّون، وربطها بالعلوم اللّسانيّة والاجتماعيّة، بما يسهم في إنجاز قراءة أكثر إنتاجيّة وأكثر انفتاحًا وقبولًا للتّطوير والإغناء . ولذا، فإنّني أرى أنّ القيمة الرّئيسة لهذا البحث لا تكمن في نتائجه، بقدر ما تعوّل على قيمة مداومة التّجرِبة، ومحاولة إيجاد أرضيّة بحثيّة صُلْبة تكون أشدّ من خَرْط القَتَاد .

وبعد، فأرجو أنْ أكون قد وُفّقتُ إلى تحقيق الهدف المنشود . واللهُ من وراء القصد، وهو الهادي إلى سَواء السّبيل .

وآخرُ دعوانا أنِ الحمدُ للهِ ربِّ العالمين

روافدُ البحثِ

أوّلًا : المصادر :

ـــ أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف (١٩٨٨م) ارتشاف الضرب من لسان العرب ؛ تحقيق وشرح ودراسة : د/ رجب عثمان محمد . ط ١ . القاهرة : مكتبة الخانجي .

ـــ أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف (١٤٠٦ه ـــ ١٩٨٦م) تذكرة النحاة ؛ تحقيق : د/ عفيف عبد الرحمن . ط ١ . بيروت ـ لبنان : مؤسسة الرسالة .

ـــ أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف (١٤١٩ه ـــ ١٩٩٨م) التذييل والتكميل في شرح كتاب التسهيل ؛ تحقيق : د/ حسن هنداوي . ط ١ . دمشق : دار القلم .

ـــ أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف (٢٠١٠م) تفسير البحر المحيط ؛ دراسة وتحقيق وتعليق : الشيخ / عادل أحمد عبد الموجود وآخرين . ط ٣ . بيروت ـــ لبنان : دار الكتب العلمية .

ـــ أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف (١٤٠٢ه ـــ ١٩٨٨٢م) تقريب المقرب ؛ تحقيق : د/ عفيف عبد الرحمن . ط١ . بيروت ـــ لبنان : دار المسيرة .

ـــ أبو حيان الأندلسي، محمد بن يوسف بن علي بن يوسف (١٤٠٢ه ـ ١٩٨٢م) المبدع في التصريف ؛ تحقيق وشرح وتعليق : د / عبد الحميد السيد طلب . ط ١ . الكويت : دار العروبة للنشر والتوزيع .

ثانيًا : المراجع باللّغة العربيّة :

ـــ الإستراباذي، رضي الدين محمد بن الحسن (١٤٢١ه ـ ٢٠٠٠م) ؛ تحقيق : د/ عبد العال سالم مكرم . ط١. القاهرة : عالم الكتب .

ـــــ استيتية، سمير شريف (١٤٢٩ه ـ ٢٠٠٨م) اللسانيات (المجال، والوظيفة، والمنهج) . ط٢ . عمّان ـــــ الأردن : جدارا للكتاب العالمي، إربد ـــــ عمان : عالم الكتب الحديث .

ـ بحيري، سعيد حسن (١٤٢٨ه ـ ٢٠٠٨م) إسهامات أساسية في العلاقة بين النص والنحو والدلالة . ط ١ . القاهرة : مؤسسة المختار للنشر والتوزيع

ـــــ بحيري، سعيد حسن (١٩٩٧م) علم لغة النص : المفاهيم والاتجاهات . ط١ . القاهرة : الشركة المصرية العالمية للنشر ـ لونجمان، بيروت ـ لبنان : مكتبة لبنان ناشرون .

ـ بلانشيه، فيليب (٢٠٠٧م) التداولية من أوستن إلى غوفمان ؛ ترجمة : صابر الحباشة . ط ١ . اللازقية ـــــ سوريا : دار الحوار للنشر والتوزيع .

ـ الجابري، محمد عابد (٢٠٠٩م) بنية العقل العربي : دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية. ط ٩ . بيروت ـ لبنان : مركز دراسات الوحدة العربية .

ـ الجرجاني، عبد القاهر (١٤٢٩ه ـ ٢٠٠٨م) درْج الدُّرر في تفسير الآي والسور؛ تحقيق : وليد بن أحمد بن صالح الحسين و إياد عبد اللطيف القيسي . ط١ . مانشستر ـــــ بريطانيا : سلسلة إصدارات الحكمة .

ـــــ الجرجاني، عبد القاهر(١٤١٣ه ـــــ ١٩٩٢م) دلائل الإعجاز؛ قرأه وعلّق عليه : أبو فهر/ محمود محمد شاكر . ط٣ . القاهرة : مطبعة المدني، جدّة : دار المدني .

ـ الجطلاوي، الهادي(١٩٩٨م) قضايا اللغة في كتب التفسير(المنهج ـ التأويل ـــ الإعجاز) . ط١ . صفاقس : دار محمد علي الحامي للنشر والتوزيع، سوسة : كلية الآداب والعلوم الإنسانية .

ـــ الحباشة، صابر(٢٠٠٨م) التداولية والحجاج (مداخل ونصوص) . ط١ . دمشق ـــ سورية : دار صفحات للدراسات والنشر .

ـــ الحباشة، صابر(٢٠١١م) مغامرة المعنى من النحو إلى التداولية (قراءة في شروح التلخيص للخطيب القزويني) . ط١ . دمشق ـ سورية : دار صفحات للدراسات والنشر .

ـ حسان، تمام (١٤٢٥ه ـــ ٢٠٠٤م) الأصول : دراسة إبستيمولوجية للفكر اللغوي عند العرب . القاهرة : عالم الكتب .

ـ حسنين، صلاح الدين صالح (ب . ت) الدلالة والنحو . ط١ . القاهرة : توزيع مكتبة الآداب .

ـ الخطيب القزويني، جلال الدين أبو عبد الله محمد ابن قاضي القضاة سعد الدين أبي محمد عبد الرحمن (١٤٢٦ه ـــ ٢٠٠٦م) الإيضاح في علوم البلاغة . بيروت ـــ لبنان : دار الجيل .

ـ دالاش، الجيلالي دالاش(١٩٩٢م) مدخل إلى اللسانيات التداولية ؛ ترجمة : محمد يحياتين . الجزائر : ديوان المطبوعات .

ـ الراجحي، عبده (١٩٧٥م) دروس في كتب النحو . بيروت ـــ لبنان : دار النهضة العربية .

ـ زكريا، فؤاد (١٩٨٨م) التفكير العلمي . ط٣ . الكويت : المجاس الوطني للثقافة والعلوم والآداب .

ـ الزمخشري، جار الله أبوالقاسم محمود بن عمر(١٤١٨ه ـــ ١٩٩٨م) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ؛ تحقيق وتعليق ودراسة : الشيخ / عادل أحمد عبد الموجود وآخرون . ط١ . الرياض : مكتبة العبيكان .

ـــ السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن محمد بن علي (١٤٢٠ه ـ ٢٠٠٠م) مفتاح العلوم ؛ حقّقه وقدّم له وفهرسه : د / عبد الحميد هنداوي . ط١ . بيروت ـ لبنان : دار الكتب العلمية .

ـــ سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر(١٤٢٧ه ـــــ ٢٠٠٦م) ؛ تحقيق وشرح : عبد السلام محمد هارون . ط٣ . القاهرة : مكتبة الخانجي .

ـــ السيرافي، أبو سعيد الحسن بن عبد الله بن المرزبان(١٤٢٩ه ـــ ٢٠٠٨م) شرح كتاب سيبويه ؛ تحقيق : أحمد حسن مهدلي وعلي سيد علي . ط١ . بيروت ـــ لبنان : دار الكتب العلمية .

ـــ السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (١٤٢٦ه ـــــ ٢٠٠٦م) الاقتراح في علم أصول النحو ؛ قرأه وعلّق عليه : د / محمود سليمان ياقوت . الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية .

ـــ صحراوي، مسعود (تموز / يوليو ٢٠٠٥م) التداولية عند العلماء العرب (دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي) . ط ١ . بيروت ـ لبنان : دار الطليعة .

ـ طبل، حسن (١٩٩٨م) المعنى في البلاغة العربية . القاهرة : دار الفكر العربي .

ـ ظاظا، حسن (١٤١٠ه ـــ ١٩٩٠م) اللسان والإنسان (مدخل إلى معرفة اللغة) . ط٢ . دمشق : دار القلم، بيروت : الدار الشامية .

ـ عبادة، محمد إبراهيم (١٩٨٩م) الدرس النحوي في التراث العربي . الإسكندرية : منشأة المعارف .

ـ عبد التواب، رمضان (١٤٢٠ه ـــ ١٩٩٩م) فصول في فقه العربية . ط٦ . القاهرة : مكتبة الخانجي .

ـ عبد الرحمن، طه (١٩٩٨م) اللسان والميزان أو التكوثر العقلي . ط١ . الدار البيضاء ـــ المغرب، بيروت ـــ لبنان : المركز الثقافي العربي .

ـــ عبد المطلب، محمد (١٩٩٤م) البلاغة والأسلوبية . ط ١ . بيروت ـــ لبنان، الجيزة ـــ مصر: والشركة المصرية العالمية للنشر ـــ لونجمان .

ـ علي، محمد محمد يونس (حزيران ـ يونيو ـــ الصيف ٢٠٠٤م) مدخل إلى اللسانيات . ط١. بيروت ـ لبنان: دار الكتاب الجديد المتحدة، طرابلس ـ ليبيا : توزيع دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية .

ـ علي، محمد محمد يونس (حزيران ـ يونيو ـــ الصيف ٢٠٠٤م) مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب . ط١ . بيروت ـــ لبنان : دار الكتاب الجديد المتحدة، و طرابلس ـ ليبيا : توزيع دار أويا للطباعة والنشر والتوزيع والتنمية الثقافية .

ـ فاركلوف، نورمان(٢٠٠٩م) تحليل الخطاب (التحليل النصي في البحث الاجتماعي) ؛ ترجمة : د/ طلال وهبه . ط١ . بيروت ـ لبنان : المنظمة العربية للترجمة .

ـ قدور، أحمد محمد (١٤٢٢ه- ٢٠٠١م) اللسانيات وآفاق الدرس اللغوي . ط١ . دمشق : دار الفكر .

ـ الكفوي، أبو البقاء (١٤١٩ه ـــ ١٩٩٨م) الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية) ؛ تحقيق : د/ عدنان درويش و محمد المصري . ط٢ . بيروت ـــ لبنان : مؤسسة الرسالة .

ـــ لاشين، عبد الفتاح (١٩٨٠م) التراكيب النحوية من الوجهة البلاغية عند عبد القاهر . المملكة العربية السعودية : دار المريخ للنشر .

ـ مانغونو، دومينيك (١٤٢٨ه ـــ ٢٠٠٨م) المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب . ط١ . الجزائر: منشورات الاختلاف، بيروت : الدار العربية للعلوم ناشرون .

ـ المتوكل، أحمد (١٤٢٦ه ـــ ٢٠٠٥م) التركيبيات الوظيفية (قضايا ومقاربات) . ط١ . الرباط : مكتبة دار الأمان ومطبعة الكرامة .

ـــ المتوكل، أحمد(١٤٢٧ه ـــ ٢٠٠٦م) المنحى الوظيفي في الفكر اللغوي العربي : الأصول والامتداد . الرباط : دار الأمان .

ـــ المتوكل، أحمد (١٤٢٤ه ـــ ٢٠٠٣م) الوظيفية بين الكلية والنمطية . ط١ . الرباط ـ المغرب : دار الأمان للنشر والتوزيع، ومطبعة الكرامة .

ـ مجموعة من الباحثين (١٩٨٣م) معجم مصطلحات علم اللغة الحديث . ط١ . بيروت ـــ لبنان : مكتبة لبنان.

ـــ مجموعة من الباحثين بإشراف : باتريك شارودو ودومينيك منغنو(٢٠٠٨م) معجم تحليل الخطاب ؛ ترجمة : عبد القادر المهيري وحمادي صمود . تونس : منشورات دار سيناترا، والمركز الوطني للترجمة .

ـ مصطفى، إبراهيم (١٤١٣ه ـــ ١٩٩٢م) إحياء النحو . ط ٢ . القاهرة .

ـــ مفتاح، محمد (يوليو ١٩٩٢م) تحليل الخطاب الشعري (استراتيجية التناص) . ط٣ . الدار البيضاء ـ المغرب، بيروت ـــ لبنان : المركز الثقافي العربي .

ـ ابن المناوي، عبد الرءوف (١٤١٠ه ـ ١٩٩٠م) التوقيف على مهمات التعاريف ؛ تحقيق : د/ عبد الحميد صالح حمدان . ط١ . القاهرة : عالم الكتب .

ـ المنظمة العربية للتربية والثقافة (١٩٨٩م) المعجم الموحد لمصطلحات اللسانيات . تونس .

ـ ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن كرم بن علي (١٩٩٠م) لسان العرب . ط١. بيروت ـــ لبنان : دار صادر .

ـ موشلر، جاك، ريبول، آن (٢٠١٠م) القاموس الموسوعي للتداولية ؛ ترجمة : مجموعة من الأساتذة والباحثين، بإشراف: عز الدين المجدوب . تونس : منشورات دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة .

ـــ الميعان، وضحة عبد الكريم جمعة (آب / أغسطس ١٤٢٨ه ـــ ٢٠٠٧م) التأليف النحوي بين التعليم والتفسير. ط ١ . الكويت : مكتبة دار العروبة .

ـ نبهان، يحيى إسماعيل (رمضان ٢٠١٣م) مناهج البحث العلمي بين النظرية والتطبيق . الأردن : دار يافا العلمية .

ـــ نحلة، محمود أحمد(٢٠٠٢م) آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر . ط١ . الإسكندرية : دار المعرفة الجامعية .

ـ نوال، ماري، و بريور، غاري(٢٠٠٧م) المصطلحات المفاتيح في اللسانيات ؛ ترجمة : عبد القادر فهيم الشيباني . الجزائر .

ـــ هارون، عطية جمعة هارون (١٤٣٣ه ـــ ٢٠١٢م) البحث البياني في تفسير البحر المحيط لأبي حيان الأندلسي . ط١ . القاهرة : مكتبة الآداب .

ـ هاينه من، فولفجانج، و فيهفيجر، ديتر (١٤١٩هـ ـــ١٩٩٩م) مدخل إلى علم اللغة النصي ؛ ترجمة : د / فالح بن شبيب العجمي . المملكة العربية السعودية ؛ مطابع جامعة الملك سعود .

ـ هلبش، جرهارد (٢٠٠٧م) تطور علم اللغة منذ ١٩٧٠م ؛ ترجمة : د/ سعيد حسن بحيري . ط١ . القاهرة : مكتبة زهراء الشرق .

ثالثًا : الدّوريّات :

ـ إدريس، مقبول (يوليو ـــ سبتمبر ٢٠٠٤م) البعد التداولي عند سيبويه . عالم الفكر، المجلد (٣٣)، العدد (١) .

ـ بلبع، عيد (ربيع ٢٠٠٥م) التداولية البعد الثالث في سيميوطيقا موريس . مجلة فصول، العدد (٦٦) .

ـ السامرائي، عمر رشيد (١٤٣٢ه) القاعدة اللغوية والقراءات القرآنية : دراسة في إشكالية الرفض والقبول في ضوء قواعد التفكير العلمي . مجلة العلوم الإسلامية، العدد التاسع .

ـ عبد الحليم، عبد المنعم (٢٠٠٠م) البدائل الأسلوبية (دراسة في تراكيب نحوية في النص القرآني) . القاهرة : دار غريب، مجلة علوم اللغة، المجلد الثالث، العدد الأول .

ـ كاظم، فيصل مفتن (٢٠٠٦م) التداولية في النحو العربي . مجلة أبحاث ميسان، المجلد الثاني، العدد الرابع .

ـ لحلوحي، فهيمة (جانفي وجوان ٢٠١٢م) علم النص (تحريات في دلالة النص وتداوله) . جامعة محمد خيضر ـــ بسكرة : مجلة كلية الآداب واللغات، العددان العاشر والحادي عشر .

ـ مبروك، جودة مبروك محمد (شوال ١٤٣١ه ـــ أكتوبر ٢٠١٠م) مقبولية نحو الشكل وأثر ممارسة الضغوط في أداء الدلالة . مجلة جامعة الشارقة للعلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد (٧)، العدد (٣) .

ـ ناصف، مصطفى (مارس ٢٠٠٠م) النقد العربي (نحو نظرية ثانية) . الكويت : المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سلسلة عالم المعرفة (٢٥٥) .

رابعًا : الرّسائل الجامعيّة :

ـ سلفاوي، أم الخير(٢٠٠٩م) البعد التداولي في البلاغة العربية من خلال مفتاح العلوم للسكاكي . الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية : جامعة قاصدي مرباح ـــ ورقلة، كلية الآداب واللغات، رسالة ماجستير .

خامسًا : المراجع باللّغة الأجنبيّة :

(1) Crystal , David (2008) : Adictionary of Linguistics and Phonetics, Sixth Edition , Blackwell Publishing.

(2) Dijk , T.Van (1977) : Text and Context : Explorations in the Semantics and Pragmatics of Discourse, Longman Linguistics Library , England.

(3) Mounin , George et autres (1984) : Dictionnaire de Linguistiqe , P.U.F, Paris .

(4) Jaccob L.Mey (2001) : Pragmatics " An Introduction ", Second Edition, Blackwell Publishing .

* * * * *